مدونة ابو عبدو

ألفة الادلبي

# وداعاً يا رشيق

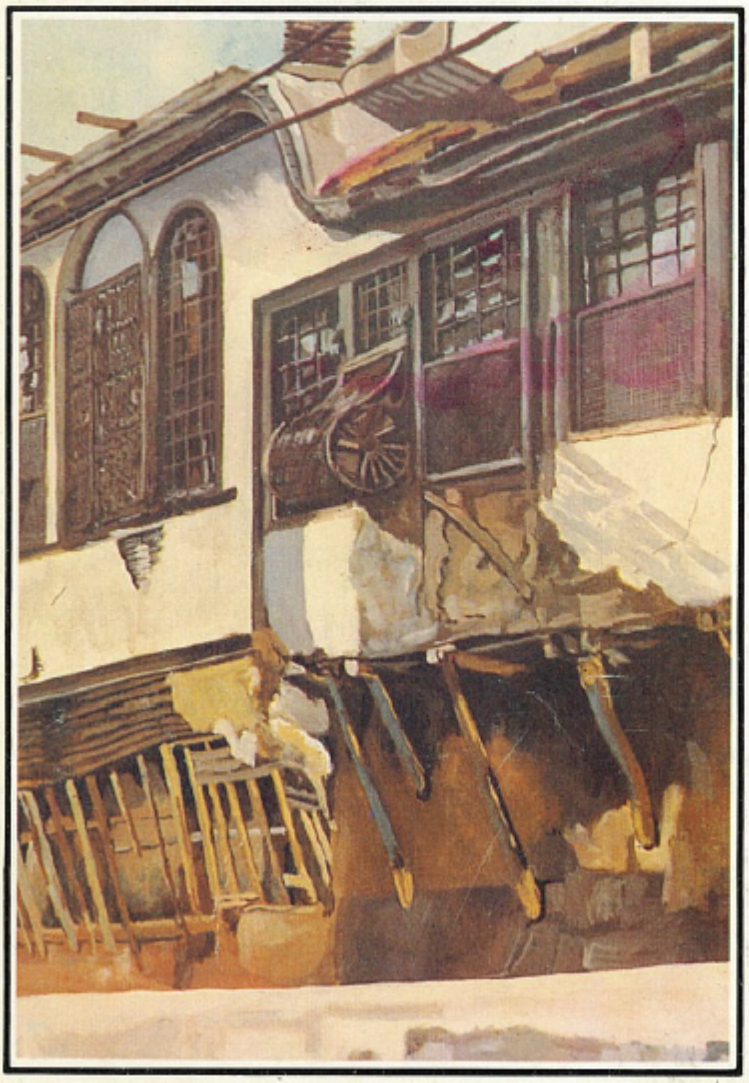

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

الطبعة الثانية ١٩٩٢

## الإهداء

الى الصبايا الصغيرات حفيداتي :
ربحة و مارية و زينب و نادية ورفيقاتهن

هذه القصص وأكثر حوادثها جرت في هذا القطاع الصغير من وطننا العربي الكبير ، أهديها اليكن وأنتن من بنات الجيل القادم الذي يجدر بهن أن لا يتناسين صور الماضي ، ومعالمه القديمة ، وقد اوشكت ان تأتي عليها عوامل التمدن الحديث .

وأشهد أنكن لكنتن من الحافزات لي على رسم هذه الصور ذات الطابع الخاص ، وسرد القصص عليكن . وذلك لأنكن كلكن فترين فيها بعض ما يشدكن الى الحياة التي عاشتها جداتكن وأمهاتكن من قبل ، وستجدن في ذلك كله شيئاً من المتعة والسلوى .

٥/٢/١٩٦٢

# الـرقيّـــة المجـرَّبَـــة

قالت لها جارتها تهدئ روعها وتخفف عنها :

مالك تعظمين الأمور ؟ أهي المرة الأولى من نوعها ؟ يا طالما تزوج الرجال على نسائهم ! .. وتمسح أم صافي دموعها بكمها وتقول :

لو سمعت هذا الخبر من غيرك لما صدقته ولقلت حكاية غدر ومكر ! .. أيعملها معي أبو صافي بعد خمس وعشرين سنة ؟! .

وتبتسم خدوج ـــ جارتها ـــ استهزاءً وتقول :

المؤمنة بالرجال كحاملة الماء بالغربال ! .. اسمعي مني ولا تضيعي الوقت ، وتعالي معي لآخذك إلى أم زكي عساها تعطيك رقية تستطيعين بها أن تتداركي الأمر قبل وقوعه .

وتتبرم أم صافي وتقول بمرارة :

تقولين أن عرسه الليلة .. فماذا تستطيع عمله أم زكي ببضع ساعات ؟

فتهز خدوج رأسها إعجاباً، وتقول:

أم زكي! هي أم العجائب، ياما ابطلت زيجات بساعات معدودة وياما جمعت بين ضدين، وياما فرقت بين الفين.. ولكن معك ليرة ذهبية؟ فهي لا تقوم بعمل ما لم تقبض الثمن سلفاً، وسعرها محدود ليرة ذهبية لكل عمل تقوم به.

وتتردد أم صافي قليلاً ثم تجرض بريقها وتقول:

معي ليرة ذهبية.

وتسرع إلى ألبستها، فترتديها على عجل، ثم تفتح صندوقها، وتخرج منه الليرة الذهبية وتشد عليها أصابعها بحنان...

إن لهذه الليرة بالذات تاريخاً حافلاً بالذكريات الحلوة عند أم صافي، وكانت قد آلت على نفسها أن تحتفظ بها للذكريات الحلوة، ولليمن والبركة. فقد مرت عليها أيام عسر وضيق ولكنها لم تفكر أبداً أن تفرّط بها... فكانت كلما رتبت صندوقها تخرج هذه العلبة من مخبئها، ثم تفتحها فإذا رأت ليرتها تهللت أساريرها، وأشرق وجهها، ثم يشط بها الخيال، وتطوح الذكرى إلى خمس وعشرين سنة خلت، إلى اليوم الذي دخلت فيه هذا البيت عروساً، وكثيراً ما كانت تحوّل عينيها عن الليرة إلى صحن الدار فتراها بعين الخيال كما رأتها في ذلك اليوم بأبهى زينة، تموج بالمدعوات، وقد تدلت من شجيرات الليمون

والنارنج التي تحف بالدار فوانيس مضاءة. وتذكر جيداً عندما أطلت من باب الدهليز كيف ناولتها إحدى قريباتها خميرة من عجين على ورقة خضراء، وطلبت منها أن تلزقها على الجدار، ولما استقرت الخميرة على الجدار ابتسم أهلها، وهنأ بعضهم بعضاً، لأن هذا يدل على أن ابنتهم استقرت في بيت زوجها وستكون حياتها محفوفة بالسعادة والهناء. وتذكر عندما دخلت صحن الدار كيف استقبلها فوج من الصبايا كلهن من أهل العريس بزغرودة حلوة ما زالت تذكر كلماتها إلى الآن:

حصنتك بياسين
يا زهرة البساتين
يا ورد وياسمين
على رؤوس السلاطين

ويرد عليهن فوج آخر من الصبايا بزغرودة أشد حماسة تبلغ لعلعتها عنان السماء:

لا طويلة شامطة
ولا قصيرة هابطة
ويا حلاوة سكرية
طبخناها البارحة

ثم تأتي أم العريس فتأخذ بيدها وتجلسها على سدة هيئت لها في صدر الليوان. وراحت هي تغض طرفها ما أمكنها، حتى بدت وكأنها مغمضة العينين. لقد قيل لها: إن العروس الوقحة هي التي تحملق بالمدعوين.

ثم تذكر كيف راحت تسترق النظر إلى الدار التي رأتها لأول مرة، وستؤيها مدى العمر... فأحبتها.. أحبت أشجارها الوارفة، بحرتها التي ترقص في وسطها نافورة ثرثارة، ليوانها ذا القوس العالي، شجرة الليلك التي كأنها تزينت لحفلة العرس ففتحت أزهارها مرة واحدة، وتدلت الأزهار عناقيد بنفسجية تداعب رؤوس المارات من تحتها، فترشق زهرة هنا، وزهرة هناك، الياسمينة التي تسلقت الشبابيك والأبواب كأنها تسترق أسرار المخادع، الياسمين العراتلي الذي نشر عطره فطغى على كل عطر فواح.

وتتنبه من شرودها عندما تقدم منها عشرون صبية من العذارى، هن نخبة هذا الجمع يحملن بأيديهن شموعاً مزركشة مضاءة، ثم يأخذنها بينهن، ويتحلقن حول هذه البحرة التي تراها أمامها الآن، ثم يسرن متمهلات متمايلات وهن يغنين لها أغنية العروس الخالدة:

اسم الله ، اسم الله يا زينة
يا ورد فتح في جنينة

كانت بينهن كواسطة العقد ، تزهو بجمالها الناضر وشعرها الأشقر الطويل الذي يكاد يمس ركبتيها وقد زينته لها الماشطة بخيوط من التيل المذهب ، ونثرته على كتفيها ، ووضعت لها على رأسها غطاءً طويلاً شفافاً من التول الأبيض ثبتته على مفرقها بإكليل من زهر الليمون ، رمز الطهارة والبراءة .

وإذا هي تسمع ضجة وجلبة ، فتدرك أن العريس قد وصل ، وتتناهى إلى سمعها أهازيج الرجال وهتافهم وهم يقولون :

نيـــر وأقـــدر
وعـادنـــا
وهـيـــه

وتذكر كيف فسرت لها ذات مرة عجوز من أقربائها معنى هذه الأهزوجة إذ قالت :

نير واقدر : يقولون للعريس : الزواج نير سنضعه في رقبتك فإن كنت رجلاً حقاً قدرت على حمله .

وعادنا : يقصدون بها:أن عادنا نحن صحابك معشر العزّاب ، وأفرغ لبيتك وزوجك ، وإن استطعت ذلك سنهتف لك قائلين : هيـــــه . . .

وتبتسم في خفر لهذه المعاني الحلوة . وإذا زغاريد النساء تعلو مرة ثانية ، وتنظر صوب الباب فترى رجلها لأول مرة وهو يدخل من باب الدهليز يحف به أهله من كل جانب ، فتغض بصرها ما أمكنها ، ويخفق قلبها وتقترب منها صبية من قريباتها توشوشها قائلة :
إياك أن تكلميه قبل أن يعطيك ثمن شعرك كما هي العادة .

فإذا صار أمامها وجاءت الماشطة ووضعت يدها بيده شعرت باضطراب شديد ، فكان صدرها يعلو ويهبط بسرعة عجيبة ، ومـا زالت إلى الآن تتساءل عن سبب هذا الاضطراب ، أكان الخوف؟ أم الفرح؟ أم الرهبة؟ أم ماذا؟ .

ثم تدخل معه هذا المخدع القائم على يمين الليوان ، ويغلق عليهما الباب ، فتقعد إلى جانبه جامدة لا تتحرك كأنها صنم من حجر . وكان هو يداعب سبحة في يده ، وتمر فترة صمت محرجة . . ثم يقترب منها ويأخذ يدها بين يديه . ويقول لها برقة وعذوبة تلك الجملة التقليدية التي كانت هي أول كلام يفاتح به الزوج زوجه :

أنا وإياكِ على الدهر ؟ أم أنت والدهر عليّ ؟؟ وتتذكر وصية قريبتها فتشيح وجهها عنه دلالاً ، دون أن ترد عليه .

فيقول : آه لقد تذكرت ... ثم يأخذ خصلة من شعرها ويقبلها ويقول لها :

شعرك الذهبي شلة حرير .. يا روحي عليه ، لا يُثمّن إلا بالذهب .. ويمد يده إلى جيبه فيخرج هذه الليرة ذاتها ، ويضعها في يدها ، وتشد عليها أصابعها بحنان كما تشدها اليوم .

ومنذ تلك اللحظة آلت على نفسها أن تحتفظ بها للذكرى الحلوة ، ولليمن والبركة . ثم ترفع رأسها فتلتقي نظراتهما لأول مرة ، وتقول له مخلصة صادقة :

أنا وإياك على الدهر .

وتتذكر أم صافي كم كانت بارة بعهدها .

كانت معه على الدهر خمساً وعشرين سنة كاملة كأحسن ما تكون الزوجة لزوجها حباً ووفاءً ورعاية . أنجبت منه تسعة أولاد ، أربعة شباب مثل النخل ، خمس صبايا ، كل صبية مثل البدر . يا ويله ! هل نسي ذلك كله ؟!! .

يا للرجال ما أقبح غدرهم ؛ وأقل إخلاصهم ... منذ مات

عمه بكري، وورث عنه الطاحونة والبستان تغيرت كل أحواله. أصبح دائم الشرود والعبوس، كثير النزق، يثور لأتفه الأمور، وينتحل أوهى الأعذار ليتغيب عن البيت. كان إذن يُبيِّت أمراً.. ما أغباها!.. كانت ثقتها به عمياء، فلم تساورها الشكوك والريب حتى وقعت الواقعة أو كادت، وهي في غفلة من أمرها.

وتسلم قيادها إلى جارتها خدوج التي تأخذها إلى أم زكي، وهناك تعطيها الليرة العزيزة الغالية، وتتلقى عنها الرقية وتحفظها..

وتوصيها أم زكي أن تصعد بمفردها بعد صلاة العشاء إلى سطح بيتها فتطوف به سبعة أشواط وهي تردد الرقية سبع مرات.

وتعود إلى بيتها وهي في شغل شاغل عما يحيط بها. لم تعِ شيئاً سوى أنها فرطت بالليرة الغالية ذات التاريخ المجيد... في سبيل الرقية التي ستحول دون زواج أبي صافي.. وينكر أولادها وجومها واصفرارها، ولكنها لم تشفِ لهم غليلاً، وآثرت الصمت حتى ترى النتيجة.

كانت كلها آذاناً صاغية، فلما سمعت المؤذن يختم آذان العشاء غافلت أولادها وصعدت إلى السطح.

كانت ليلة ممطرة، حالكة السواد، شديدة الوحشة، فاستولى

عليها خوف مفاجئ لم تكن تنتظره أبداً، وشعرت برهبة... ولكنها جمعت كل شجاعتها وابتدأت بالشوط الأول وهي تردد كما علمتها أم زكي:

بعثت لك هاني وماني وكبير الجن القهرماني
طربوشه وردي، وبابوجه جلدي
ليأتي بك الآن، الآن
بأي حال، بأي حال
من أي مكان، من أي مكان
على عجل، عجل، عجل.

فإذا زوبعة شديدة تجتاح الجو، فتلتمع البروق هنا وهناك، وتزمجر الرعود، وينهمر المطر حبالاً موصولة، وتجمد أم صافي في مكانها كأنها سُمِّرت تسميراً. وراحت تتراقص أمام ناظريها أشباح من الجن بهيئات مفزعة ذات قرون وأذناب، وتتناهى إلى سمعها من بعيد أصوات موحشة منكرة كأنها عواء كلاب مسعورة، أو نعيق بوم...

ويشتد وجيف قلبها حتى تشعر كأنه سيقف عن الخفقان، وراحت تسائل نفسها:

ألا يصيب أبا صافي سوء من كبير الجن القهرماني؟؟ ومن

هاني وماني اللذين لا شك أنهما من أخبث بني الجن وأشدها مكراً ببني آدم؟!!..

أبو صافي... زوجها الحبيب... أبو أولادها التسعة، زين شباب الحارة رغم سنيه الخمس والأربعين، ترمي به إلى التهلكة بيدها، فيمسه عارض من الجن، وتخسره إلى الأبد؟!.

لا، لا، أعوذ بالله من شر ما أقدمت عليه.. ليعش أبو صافي سليماً معافى، ولو كان متزوجاً من غيرها، وعوضها على الله بالليرة الغالية، ولتدع أمرها إلى الله.

وتبذل جهداً حتى تستطيع تحريك قدميها، ثم تروح تتلمس طريقها في الظلام بخطىً مضطربة مرتبكة، فتتعثر وتزل قدمها وتهوي من السطح إلى صحن الدار!... وتتلقاها شجرة الليلك...

كانت الشجرة وفية لتلك التي تعهدتها بالسقي والتشذيب خمساً وعشرين سنة كاملة، فتكسر أغصانها تحتها، وتسلمها إلى الأرض برفق وحنان ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

لم تمت أم صافي، رغم أن الهوّة كانت سحيقة المدى، بل أصيبت برضوض وخدوش يسيرة. ويهب أولادها جميعهم مذعورين على صوت استغاثتها، وفي طليعتهم ابنها البكر صافي الذي سارع ليحملها على ساعديه القويين ويضعها في فراشها، ويسألها بلهفة:

ماذا دهاك ؟ أي عمل لك على السطح في مثل هذه الساعة من الليل ؟ .

وتخجل أن تبوح لهم بسر الرقية فتكتفي بأن تقول باقتضاب : أبوك تزوج ... الليلة عرسه ! .

وتستدير العيون دهشة ، ويسود الجميع وجوم وسكون كالسكون الذي يسبق العاصفة ، ثم تهب العاصفة ، ويشتد اللغط ، ويتكلمون كلهم معاً فلم يفهم مما يقولون شيئاً .. ثم يسترعي انتباههم أخوهم الكبير صافي ، الذي انفتل يرتدي ملابسه بسرعة وهو يرغي ويزبد ، ويبربر بكلام لا يبين ، وتقول له أخته الكبرى :

إلى أين ، وأمك في مثل هذه الحالة ؟ .

ويجيبها بحدة :

إليه ، لآتيها به .

وتتمالك الأم نفسها وتقول :

تأتيني به ؟ ولمَ ؟ هل تعرف أين هو الآن ؟

ويرد عليها :

أنا أعرف أدبر شغلي ... سآتيك به الآن ، من أي مكان بأي حال ، من الشرق ، من الغرب ، من تحت الأرض ، من السماء السابعة .

وتفغر الأم فمها دهشة وهي تتساءل في نفسها:

أهذا هو إذن كبير الجن القهرماني؟ كان قائماً بين سمعها وبصرها، ولم تلجأ إليه، بل لجأت إلى أم زكي حيث فرطت بالليرة الغالية... ثم تقول له:

لا، لا، يا بني طوِّل بالك... الله يرضى عليك، ملائكة السماء ترضى عليك، أبوك رجل عنيد، لا تصطدم معه، شكوته لله، لا تعمل لنا فضيحة، لا تصيرنا سيرة بفم الناس...

ويرد عليها بنزق:

صرنا سيرة وزيادة!!.. ماذا تريدين إذن؟ هو يتزوج، وأنت تنتجرين، ونحن نتفرج عليكما؟!.. ثم يصفق الباب خلفه وينطلق.

ويشعر الجميع بارتياح عميق لكلامه، كأنه يعبر عما في صدورهم جميعاً، لا سيما الأم، فقد أحست بالاطمئنان يتسرب إلى نفسها بعد أن رأت ابنها صافي شاباً قوياً ينتصر لها بهذه الحماسة، وهذا الاندفاع.

وما هي إلا برهة قليلة من الزمن حتى يعود صافي ومعه أبوه.

ما عرف أبو صافي الذل والمسكنة طول حياته كما عرفهما في تلك الساعة أمام زوجته التي تظاهرت بالإغماء، وأمام أولاده التسعة الذين كانوا ينشجون حول فراش أمهم.

فكان يتمتم بانكسار ذليل، منكس الرأس:

لاحول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، النصيب نصيب، والذي انكتب على الجبين لازم تشوفه العين. إنا لله وإنا إليه راجعون.

ولكن هذه الكلمات ــ على قدسيتها وبلاغتها ــ ما كانت لترد عنه النظرات العاتبة، والكلمات الواخزة.

ويجد أن خير ما يخرجه من هذا المأزق هو أن يأتي بالطبيب عساه يحتمي به ريثما تهدأ النفوس قليلاً.

ولما كان اليوم الثاني وقد شاع في الحارة كلها خبر ما وقع لأم صافي مع زوجها، راح جيرانها، وصاحباتها يفدون لعيادتها والاطمئنان عليها. ولكن أساريرها لم تتهلل وتنفرج إلا لجارتها خدوج التي انحنت عليها ووشوشتها قائلة:

هاتي البشارة... رجعت المياه إلى مجاريها، وبطل زواج أبي صافي.

ألم أقل لك أن أم زكي أم العجايب، ورقيتها المجربة لا تخطىء أبداً.

# الحقد الكبير

ما كنت أحسب أن تلك الذكرى المؤلمة ستظل قابعة في أعماق نفسي دائماً أبداً، حية لا تموت مهما بعد بها العهد.. يثيرها مرأى كوب من الحليب، مجرد كوب صغير من الغذاء الذي عافته نفسي منذ أن أصبح مرآه يبعث كوامن الأسى في قلبي.

كنت كلما وقع نظري عليه تمثل في خاطري أبو حامد بائع الحليب الجوال، بقامته القميئة، المائلة قليلاً على وعاء الحليب المعلق على كتفه، وسرواله الأزرق، وقد شد عليه زناراً أحمر، وارتدى فوقه ميتاناً مخططاً بالأبيض والأسود، وعينيه الصغيرتين اللامعتين تحت حاجبيه الكثيفين، وصوته الحنون وهو ينادي بنغمة ممطوطة: حليب، حليب.

كان الصوت يتناهى إليَّ كل يوم وأنا قابع في فراشي تحت اللحاف فيصلني خافتاً عميقاً عندما يكون أبو حامد قد وصل إلى حارتنا الطويلة المنحدرة من ذيل جبل قاسيون حتى حي الصالحية. ثم

يبدأ الصوت يعلو ويعلو. وعندما يصل أبو حامد أمام بيتنا تماماً كانت ساعتنا العجوز المثبتة على حائط الليوان، والتي وعت جيلين أو أكثر من أسرتنا، تبدأ دقاتها الرتيبة، فتدق ست دقات متتابعة وكأنها والحلاَّب على ميعاد لا يتخلفان عنه أبداً. فأهب عندئذ من فراشي يدفعني نشاط سن العاشرة الذي كنت فيه، وأهبط الدرج راكضاً فأثير ضجة قوية توقظ أهل البيت جميعاً، ثم أتناول إبريق الحليب من المطبخ لأملأه من الحلاَّب. كانت هذه هي الوظيفة التي أناطتني بها أمي كل يوم.

وعندما أفتح الباب كان يطالعني وجه أبي حامد بابتسامته العريضة التي تضفي على وجهه طيبة وحناناً. ثم يكيل لي ثلاث كيلات من الحليب.

كانت عيناي تستقران بكثير من الفضول على يده الكتعاء التي تقلصت أصابعها وتجمعت في راحة الكف ونتأ الإبهام كأنه قطعة خشب يابسة. كان يخطر لي أحياناً أن أسأله عن سبب عاهته تلك، ولكن الخجل كان يمنعني عن الكلام.

ثم يتحول أبو حامد إلى باب جارتنا ويصرخ بصوت حنون: حليب.. وينفتح الباب فوراً، وتبرز منه صبية صغيرة في مثل عمري، هي سنية بنت جيراننا فتحييني بابتسامة مشرقة كصباح

ربيعي فأشعر بأن الدنيا تضحك لي بأسرها، وأظل واقفاً أتملى من وجهها الصبوح حتى يملأ لها أبو حامد الوعاء الذي بيدها، فإذا أغلقت بابها انكفأت إلى داخل البيت وأنا أدمدم أغنية، وأرشف رشفات صغيرة من السائل اللذيذ.

وهكذا كان يبدأ نهاري كل يوم بداية طيبة.

فإذا تحلقنا حول المائدة كنت أسمع أمي تقول وهي تصب لنا الحليب: أبو حامد حلّاب ممتاز... الله يبارك له... ما يغش الحليب أبداً. إنه صاحب ذمة ودين. ويرد أبي قائلاً:

مسكين إنه رجل طيب، فقير وأبو عيال، يذهب كل يوم قبل شروق الشمس ماشياً إلى الغوطة ليبتاع حليبه من ثدي البقر مباشرة.

فأشعر أنا نحو هذا الرجل الذي ألفته كثيراً بشيء من العطف والشفقة. ولكن شعوري هذا ما لبث أن تحوّل ذات يوم إلى إكبار وإعجاب، يوم رأيت أبي يهب من فراشه لما سمع صوت الحلاب ويخرج معي لمقابلته. كان يفعل ذلك ليستطلع منه أخبار الثوار في الغوطة. كان يسأله أسئلة هامة ويحسب أني لا أفقه مما يقولان شيئاً. كان يقول له مثلاً:

كيف حال الجماعة اليوم؟.

فيجيب أبو حامد وهو يكيل الحليب بصوت خافت ولهجة كلها ثقة :

بخير والحمد لله .. المعنويات طيبة .. ثم يهمس مبتسماً :

في المعركة التي جرت البارحة في قلب الغوطة استشهد ثلاثة من أولاد الميدان ، وخمسة من أولاد الشاغور ، وسبعة من الغوطة .. أنا أعرفهم جميعاً .. كل شاب والله مثل النخلة ! .. ولكنهم قتلوا كثيراً ، كثيراً من الفرنسيين ... وردوهم على أعقابهم .. هؤلاء الشهداء يا أفندي هم شباب أهل الجنة . يا ليتني أصبح واحداً منهم ! .. ويبدو الأسف على محياه ، ثم يمد يده الكتعاء ويقول :

هذه اليد يا أفندي أحرقت كبدي ، لو كانت سليمة قادرة على استعمال السلاح كنت والله تركت العيال في رعاية الله والتحقت بالثورة لأجاهد في سبيل الحق والوطن .

ثم يردف قائلاً بألم شديد :

ولكن الله لم يشأ أن يمنحني السعادة ! .. ثم يتحوَّل إلى باب جارنا ويصرخ : حليب .. حليب ..

سمعته ذات يوم يقول لأبي وهو يكيل الحليب كعادته :

هجم البرد يا أفندي .. وأكثر الثوار يا حسرة ! ليس لديهم عباءات .. والنوم في البرية بلا عباءة أمر صعب . كان الله في عونهم .

ويهز أبي رأسه وهو يتمتم بكلمات مبهمة ثم يدخل البيت ويتحادث مع أمي طويلاً بصوت خافت، ويبدو على أمي أنها كانت مهتمة بالحديث اهتماماً شديداً وأشعر برغبة ملحة لأفهم ما يدور بينهما من حديث..

في المساء أخذت أسترق السمع من خلف الباب فسمعت أمي تقول:

طفت اليوم بجميع بيوت حارتنا. فما تخلف بيت واحد عن الدفع الأغنياء والفقراء على السواء. فاستطعت أن أجمع ثمن خمسين عباءة. أتدري أن ثمن العباءة الواحدة خمس ذهبات؟ فيقول أبي: أعرف ذلك، الأفضل أن تشتري أنت العباءات. حاولي أن تشتري من كل دكان عباءة أو اثنتين فقط، كي لا تلفتي إليك الأنظار. فالفرنسيون يبثون الجواسيس والخونة في كل مكان. ثم يقول:

أتدرين أن أبا حامد الحلاب قد تكفل بإيصال العباءات إلى الثوار معرضاً نفسه للخطر.

فترد أمي: إنه صاحب مروءة ونخوة. ويقول أبي:

سيأخذ معه إلى الغوطة كل يوم عباءة واحدة يسلمها للثوار حتى لا يثير أي شبهة.

ومنذ ذلك اليوم أخذ أبو حامد يمر على بيتنا كل مساء ثم

يخرج منه وعلى منكبيه عباءة جديدة ثم يعود في الصباح وهو عار منها ليأخذ غيرها. وهكذا إلى أن اختفت ذات يوم كومة العباءات التي كانت تختبئ تحت سرير أمي.

وفي صباح كئيب عندما دقت ساعتنا العجوز دقاتها الست لم أسمع صوت الحلاّب الحنون، الذي كان كأنه يدعوني لمغادرة الفراش كل يوم. بقيت يومها قابعاً في فراشي أشعر بشيء من الغم والانقباض. حتى سمعت صوت أمي تناديني فقمت متكاسلاً وتناولت فطوري دون كوب الحليب المفضل لديّ. وتساءلت أمي قائلة:

ماذا جرى لأبي حامد يا ترى؟، ما كان ليتخلف عن المجيء أبداً.

فيرد أبي والقلق بادٍ على وجهه:

من يدري لعله مريض.

عندما خرجت من المدرسة في أصيل ذلك اليوم بالذات رأيت بعض التلاميذ قد تجمعوا في منعطف قريب من المدرسة وكأنهم يتحدثون بأمر خطير. قال كبيرهم:

تعالوا يا أولاد ننزل على ساحة المرجة لنتفرج. يقولون أن الفرنسيين يعرضون فيها جثث الثوار الذين قتلوهم في معركة البارحة.

ويبدو الجزع على وجوه الصبية ويقول بعضهم:
لا تصدقوا ذلك أبداً.. الفرنسيون يكذبون كثيراً.

ويقول الكبير:
تعالوا نر إذن. ويسير أمامهم.. وأنخرط بينهم مأخوذاً ذاهلاً. كنتُ ألاحظ الناس في ذلك اليوم يسيرون في الطرقات عجلين منكسي الرؤوس، يبدو الوجوم والانقباض على وجوههم، وكأن رماداً قد رش عليها.

لما وصلنا المرجة كانت خالية من المارة تماماً على غير عادتها، كأن الناس يتحاشون المرور بها. فيحوِّلون عنها طريقهم نكاية بالفرنسيين. ولما صرنا في وسطها تماماً رأينا منظراً مخيفاً وقفنا أمامه جامدين. لقد صُفّت حول النصب الذكاري القائم في وسط الساحة جثث بشعة مشوهة، ممزقة الثياب، ملطخة بالوحول والدماء. وكان بضعة جنود من الفرنسيين يحرسون الجثث، وكان ضابطهم ينظر إلينا ويشير بيده إلى الجثث وهو يضحك بشماتة ويقول برطانة أعجمية: ثوار... ثوار..

لقد بدرت مني صيحة جزع عندما رأيت جثة أبي حامد الحلَّاب بين الجثث!.. كانت سحنته قد تغيرت كثيراً. ولكني عرفته من ألبسته، ومن يده الكتعاء وقد تمددت إلى جانبه وكأنه

برهان قاطع يثبت أن صاحبها لم يشترك في معركة لأنه عاجز عن حمل السلاح .. وراح الصبية يتراجعون بصمت رهيب . وكأنهم شعروا بفداحة غلطتهم . كان يجب عليهم ألا يأتوا نكاية بالفرنسيين كما يفعل الكبار . ولما ابتعدوا قليلاً قال كبيرهم بصوت مرتجف وقد بدا عليه الخزي والندم كأنه هو المسؤول عن مجيئهم :

صحيح أن الفرنسيين كذابون ، ليس بين هؤلاء القتلى ثائر واحد ، أنا أعرف الثوار ذهبت مرة مع أبي إلى الغوطة ورأيتهم ، إنهم أقوياء ، أشداء . أما هؤلاء الذين رأيناهم فليس بينهم والله ثائر واحد ، إنهم من الفلاحين المساكين ، ومن العجزة ، قتلوهم غدراً وجاءوا بجثثهم ليرهبونا .

خسئوا لن نرهبهم أبداً .. سنصبح نحن أيضاً ثواراً عندما نكبر . فهز الصبية رؤوسهم هزات متتابعة تدل على تصميم وإرادة ، دون أن ينطقوا بكلمة . كانت وجوههم مصفرة ، كالحة كأنها مكهربة ، وعيونهم متسعة تحملق بكل شيء . وأفواههم مفتوحة . يدل لهاثهم على اضطراب قلوبهم الصغيرة .

راحوا يسيرون بسرعة وأقدامهم الصغيرة تضرب الأرض ضربات قوية مضطربة ، كأنهم رجال حاقدون .. وأحببت أنا أن أتكلم لأدعم الكبير فأقول لهم : إني رأيت جثة أبي حامد الحلّاب

بين الجثث، وهو ليس بثائر كما تعلمون. ولكن لساني لم يسعفني بالنطق كأنه قد يبس في حلقي. كنت أشعر بضيق شديد يكاد يكتم أنفاسي. أردت أن أبكي بصوت عال لأنفس عن صدري، ولكن الدموع التي طفرت إلى عيني انحبست في محجري وأبت أن تسيل كأنها قد تجمعت كلها في حلقي حتى كاد ينفجر.

أسرعت إلى البيت، رأيت أمي جالسة على حافة الليوان تبدو حزينة، شاردة الذهن، ترقأ من حين لآخر دموعاً تنهمر من عينيها بسخاء وهي صامتة. فوقفت أمامها مرتاعاً وقلبي يدق دقات عنيفة، وسألتها بلهفة: أين أبي. قالت وهي تحاول تهدئة صوتها المضطرب لتطمئنني:

أبوك سافر إلى الضيعة، وسيعود بعد أيام قليلة. اقتربت منها وحدقت إلى عينيها بوقاحة ثم قلت لها:

لماذا تخفين عني الحقيقة؟..

إنني أعرف إنه التحق بالثورة، وتركنا في رعاية الله كما كان يتمنى أن يفعل أبو حامد قبل أن يقتله الفرنسيون..

فضمتني إلى صدرها بعنف وقالت وهي تبتسم:

يا خبيث إنك تتكلم مثل الكبار تماماً. من أين عرفت كل ذلك؟ إياك أن تذكر أمام أي شخص كان أن أباك التحق بالثورة.

لو دري الفرنسيون لهدموا بيتنا . قلت : أيهدمونه ونحن فيه !؟؟ .

قالت : يعملونها يا بني ! لقد هدموا كثيراً من الدور على رؤوس سكانها . ورحت التصق في صدرها وأوصالي ترتعد من الخوف .. كنت أشعر في تلك اللحظة أنني كبرت كثيراً ، وعرفت أشياء كثيرة . ألم أر الموت في أبشع مظاهره لأول مرة في حياتي ؟ ألم أعرف اليوم كثيراً عن فظاعة الفرنسيين ؟؟ .

في تلك الليلة نمت نوماً قلقاً مضطرباً ، كانت تقطعه أحلام مخيفة رهيبة . كنت أحياناً أرى جثة أبي ملطخة بالوحول والدماء ملقاة في ساحة المرجة إلى جانب جثة الحلّاب ، فأصحو على صراخي المزعج فأرى أمي واقفة أمام سريري مضطربة تهدهدني ، وتسكن من روعي ، حتى أهدأ قليلًا . فإذا عدت إلى إغفاءة بعد جهد رأيت بيتنا ينهار تحت قصف القنابل وأنا وأمي نتراكض بين الدخان والغبار . ثم تعاودني رؤية الجثث ولكنها كانت هذه المرة لجنود فرنسيين أعرف بينهم ضابطهم اللئيم الذي كان يضحك بوقاحة ويشير بيده إلى الجثث ، فأشعر بشيء من ارتياح الشماتة .

عندما بزغ الفجر كانت أعصابي قد تعبت تماماً فاستسلمت لنوم عميق ثم صحوت على صوت ناعم ندي ينادي في أعلى الحارة :

حليب .. حليب .. كان للصوت نفس النغمة الممطوطة

والجرس الحنون ، ولكنه كان ينتهي بأنة مرتجفة حزينة : عرفت الصوت حالاً ، كان صوت صديقي حامد الابن الأكبر للحلاَّب الشهيد ! .. فعضضت على شفتي من الغيظ ورحت أتصور رفيقي المسكين المتفوق في دراسته علينا جميعاً كيف يتحتم عليه الآن أن يترك مدرسته قبل الأوان ويودع آماله الحلوة ليعيل أسرته الكبيرة ! . فيضطر أن يخلع عن كتفه محفظة الكتب ليحل محلها وعاء الحليب الكبير الذي ربما لازمه طول حياته كما لازم أباه من قبل ! ..

وتنهمر من عيني دمعتان ساخنتان ، ومنذ ذلك الحين راح ينمو في أعماقي حقد كبير مرٌّ .

# وداعـــاً يـا دمـشـــق

سعدي بك خفيف الرأس ـــ على حد تعبير أصدقائه ـــ إذا ما كرع كأسه الثالثة انقلبت رزانته خفة، وتحول صمته الطويل ثرثرة قد لا تنتهي إلا بانتهاء الجلسة. ولما كان يدرك عيبه هذا، فهو يؤثر إذا ما أراد أن يدفن همومه في كؤوسه. أن يشرب مع أخلص خلانه، حتى إذا دب دبيبها إلى مكمن الأسرار كان في مأمن من الإفشاء.

كانت الجلسة هذه المرة على شرفة منزله المطلة من سفح قاسيون على بساتين الشام وغوطتها. وكان جليسه صديقاً قديماً له لا يتحرج من أن يبثه شكواه، أو أن يبوح له بدخيلة نفسه، لا سيما أنه من الصنف الذي يحسن الإصغاء مهما طال الحديث.

ويجلس الصديقان يشربان ويتسامران، فالأمسية ممتعة، والهواء دافئ معطر، والقمر بدر، والمائدة حافلة بأكلات شامية شهية. ولما استقرت الكأس الثانية في جوف سعدي بك، التفت إلى صديقه وسأله جاداً:

ـــ ألا تعتقد معي يا فؤاد، إن في الهرب أحياناً شجاعة؟

قال فؤاد:

ـــ قد يكون ذلك صحيحاً، وقد قال الناس قديماً:

الهرب ثلثا الشجاعة.

قال سعدي بك:

ـــ ولكن في اعتقادي أن الهرب يكون أحياناً شجاعة كاملة، بل أكثر من شجاعة، سمّه إقداماً، تضحية إن شئت.

لقد هربت مرتين.. وكنت في هربي كما أعتقد أشجع مني في أي حين آخر.

وبصمت قليلاً وهو يفكر ويملأ كأساً. ولم يسأله صديقه أن يتم حديثه خشية أن يبدو كمن يود أن يستطلع أمراً لا يعنيه. غير أن سعدي بك ما لبث أن عاد إلى ما انقطع من حديثه فقال بصوت هادئ عميق:

كان ذلك منذ أكثر من عشرين سنة، يوم كنت في الثامنة عشرة من عمري نسكن حيَّ العمارة. وكانت دارنا تقع إلى جانب دار حليم باشا أكبر وجهاء الحي آنذاك. أتصدق أنني مهما سكنت من الدور ما زلت إلى الآن أحب دورنا الشامية القديمة. وأحنُّ إليها،

وأفضلها على غيرها . ألا ترى معي أن في طراز بنائها القديم شيئاً من الديمقراطية .. إنها تبدو على الأقل متشابهة لا يشمخ كبيرها على صغيرها ، جدرانها تسند بعضها بعضاً ، ومياهها مشتركة ومكشوفة ، وسكانها دائماً أمناء على طهارة المياه . وسطوحها متصلة ببعضها . وشبابيكها المتقابلة المطلّة على الأزقة الضيقة تكاد تتعانق في ود ، توحي إليك دائماً أنها تضم أناساً متحابين متآلفين ، يشد بعضهم أزر بعض . ولا يبدو لنا الفارق إلا إذا ولجنا الدهليز المعتم ، وتخطينا الدار الأولى التي كنا نسميها ( البراني ) إلى الدار الثانية ( الجواني ) حيث تبدو لنا عظمة الدار في سعة فسحتها ، وزخرفة ليوانها ذي القوس العالي ، وأناقة بحرتها الرخامية ذات النافورة الدفاقة ، كذلك كانت دار جارنا حليم باشا أكبر دار في الحي . وكان البراني في دار الباشا يضم كل مساء وجهاء الحارة ، وكان مكان أبي يأتي دائماً إلى يمين الباشا ، فهو جاره ، وابن حارته ، وصديقه القديم . وكان أبي ضابطاً متقاعداً ، قد خاض حروباً كثيرة ، وعنده رصيد من الحوادث لا ينضب أبداً . كان يتحدث إلى حليم باشا وضيوفه بعنجهية عسكرية عن بطولات لم تقع أبداً إلا في خياله الخصيب .. وكانوا يصغون إليه مأخوذين بحديثه وهم يحتسون القهوة التي يدور بها عليهم أبو نعيم وكيل الباشا .

كنت كثيراً ما أحضر تلك الجلسات مع أبي . وأتخير مكاني دائماً مقابل الباب المؤدي إلى الدار الجوانية عساي ألمح سنية ابنة

الباشا ... فكثيراً ما كانت تغافل الخدم وتأتي من الدار الجوانية وتشق الباب قليلاً الذي كنت أجلس قبالته لتخالسني النظر، أو تشير إليَّ إشارة تسكرني بها طول الليل..

كم كنت أعشق سنية؟... كنت أنتظر كل صباح العربة التي تقلها من البيت إلى مدرسة الراهبات في حي باب توما. كنا نتبادل النظرات والابتسامات، كان لصوت حوافر الخيل المطهمة التي تجر عربة سنية على بلاط الزقاق وقع الموسيقى على سمعي. كنت اتلكأ في الطريق حتى تمر العربة فلا أصل إلى مدرستي ــ مكتب عنبر ــ في أكثر الأحيان إلا متأخراً فيفرض عليّ قصاص قاس كنت أتقبله راضياً في سبيل سنية.

ولما بلغت سنية الرابعة عشرة منعها ذووها من الذهاب إلى المدرسة على جرى العادة في ذلك العصر كما تعلم. وأصبحت لا تخرج من البيت إلا بصحبة أمها أو عمتها، ملتفة بملاءة سوداء. ولم أعد أراها إلا لماماً. ولكن العشاق بارعون دوماً بابتكار الوسائل التي تصلهم ببعضهم، مهما اشتدت المراقبة عليهم، كانت شبابيك دارينا ذات الأخصاص الصغيرة لا تبعد عن بعضها إلا قليلاً. فكنا نغامر حين يشتد بنا الشوق، فأضع على رأسي غطاء لأبدو كامرأة وأقف خلف الشباك ونشير إلى بعضنا، أو نتحدث بكلمات مبهمة

لا يدرك معناها غيرنا، وربما كانت هناك عشرات العيون ترقبنا من شبابيك الجيران المقابلة لنا. أما الساقية التي كانت تنحدر من دار الباشا لتمر بدارنا فياما حملت لي رسائل سنية. كنت أقف في الساعة التي تحددها لي أراقب الساقية، وألتقط أي شيء طاف عليها.. باذنجانة محفورة قد أحكم سدها بعد أن حشرت فيها الرسالة، أو قارورة، أو علبة صغيرة. كل شيء له قدرة على العوم، وعلى عدم تسرب الماء إلى داخله، كان قادراً على أن يحمل لي رسالة منها.

وتموت في حارتنا جارة لنا عجوز، هي زوج أحد الوجهاء.. ويصبح حتماً على رجال الحارة بما فيهم الباشا أن يذهبوا ثلاث ليال متواليات بين صلاة المغرب وصلاة العشاء إلى دار المتوفاة ليتقبلوا التعازي مع أهلها. فأهل الحارة كما تعلم كانوا وكأنهم أبناء أسرة واحدة.

وتحمل إليَّ الساقية رسالة من سنية تقول فيها:

سأنتظرك بعد المغرب في البراني. لا تخف لن يكون في البيت أحد غيري، لأنهم سيذهبون جميعاً لتعزية جارنا.

آه لن أنسى أبداً وقفتنا تلك تحت الياسمينة!..

أشعة القمر تغمرنا والظلال تتراقص من حولنا، والنافورة تغني لنا، والياسمينة تداعبنا فتهرهر زهراتها علينا، ويستقر بعضها فوق شعر

سنية الفاحم نجوماً ناصعة البياض. وسنية ترتدي ثوباً من حرير أزرق له حفيف ناعم، تهف منها رائحة عطر البنفسج الذي كانت تفضله على كل عطر. وألق غريب يشع من عينيها السوداوين، ويدها الطرية الناعمة تضطرب في يدي. قلبي يخفق، وكياني يرتعش، ونشوة تغمرني ما عرفت أروع منها في حياتي... طوقت سنية بذراعي، ورحت أشد جسمها اللدن إلى صدري فأسمع خفقات قلبها.. قلت لها:

ليت لنا أجنحة...

قالت:

وإلى أين تريد أن نطير بها؟؟

قلت:

إلى القمر...

قالت:

ما أروع ذلك!.. ولكن ألا تشعر معي كأننا نطير الآن؟.. وكأننا قد اقتربنا من القمر؟..

وقبل أن أرد عليها نسمع حركة صغيرة ما أدري مأتاها، قد تكون من قطة أو نحوها، جعلتنا في لمح البصر نفترق مذعورين ونحن في أوج نشوتنا فيهرع كل منا في درب معاكس!.

وكانت هذه آخر مرة رأيت فيها سنية!..

بعد أيام قلائل إذ الساقية تحمل إليَّ رسالة منها تقول فيها أنه يجب عليَّ الإسراع في خطبتها قبل أن يعطي أبوها كلمته لأحد الوجهاء الذي جاء البارحة يخطبها لابنه.

وهرعت إلى أمي.. وبحت لها بسري، ورجوتها أن تعرض الأمر على أبي. كنت أكلمها وقلبي يرتجف، وأشعر بخوف ما عرفت له مثيلاً، وكأن له مخالب تنغرز في قلبي وئيداً وئيدا.. ويزداد خوفي عندما أرى تجهم وجه أمي.. وكأنها شعرت بما أقاسي من لوعة وارتباك، فراحت تواسيني وتقول لي:

أخشى يا بني أن يرفضوا مصاهرتنا؛ فنحن لسنا في مثل مقامهم وغناهم.

ويدخل علينا أبي فجأة، فأتوارى خجلاً منه، وتحكي له أمي ما كان يدور بيننا. ويعود إليَّ شيء من أمل باهت عندما ألمس تحمسه للقضية فهو لا يرى نفسه أقل شأناً من حليم باشا. قد أكسبته تربيته العسكرية كبرياء وأنفة. ويصر على أن يذهب فوراً إلى الباشا ليخطب لي ابنته تحدياً لأمي التي أرادت أن نتمهل قليلاً لتمهد الأمر وترسل من يجس النبض حسب قولها.

ويعود أبي من دار الباشا مقهوراً، محطم الكبرياء، حتى خيل

إليَّ أن قامته المنتصبة قد انحنت قليلاً فقد خاب أمله بالباشا الذي رده رداً غير كريم. ونوه له بلهجة يفهم منها:

إنه كان الأحرى به ألا يتطاول إلى مقام أرفع منه، وألا يتناسى هذا الفارق البين بين الأسرتين. ويحلف أبي ألا يرى الباشا، وألا يكلمه أبداً بعد هذه الإهانة التي لحقته منه.

وتتحطم آمالي كلها كما يتحطم لوح من زجاج شفاف ارتطم بأرض صلبة...

ولا بد أن تسألني وكيف كان حالي بعد ذلك؟

لقد كنت شجاعاً... شجاعاً حقاً أكثر مما كنت أنتظر أنا نفسي.. لم أنزو في ركن من بيتنا لأجتر مأساتي كأي مراهق بليد، لقد كان لدي من الجلَد ما يكفيني لكتم الألم الذي راح يمزقني فما يبدو عليَّ منه شيء...

وما أسرع ما انتشر الخبر في حارتنا فقد نقله أبو نعيم الذي سمع ما دار بين أبي والباشا إلى السائس، والسائس حكاه إلى الحلاق، والحلاق وجده خبراً مثيراً لتسلية زبائنه..

كنت ألمح الشماتة في عيون شباب الحارة، فكل واحد منهم كان يحلم بسنية، ويعز عليه أن يستأثر بها غيره.

ورحتُ أفكر في كثير من العزم والتصميم لتحطيم السلاسل التي تشدني إلى سنية منذ وعيت الدنيا وإن كان في تحطيمها تحطيم قلبي. فقد كان يخيل إليَّ أنني غير قادر على السكن في حي بعيد عنها.. وأقرر الهرب من الشام كلها، لأهرب من مأساتي.

وكان لي خال مغترب يعمل في سان باولو من أعمال البرازيل، ليس له أولاد، وكان يكتب إليَّ من حين لآخر يحثني على المجيء إليه لأتعاون معه على إدارة أعماله الكبيرة. وكان أهلي يشجعوني على الذهاب إليه لما ينتظرني هناك من خير وكنت أرفض دائماً من أجل سنية...

ولما بلغها خبر عزمي على السفر أخذت تكتب إليَّ رسائل كثيرة تستحلفني فيها أن لا أسافر، فهي لا تقوى على العيش بعيدة عني، وتعدني بأنها ستسعى دائماً لتهيئة الفرص المناسبة لالتقائنا. وكانت رسائلها تزيد في ألمي وعذابي، وكثيراً ما كانت تبكيني وتؤرقني طول الليل. ورغم ذلك لم أضعف ولم أتخاذل. أيرضي سنية أن تكون زوجة لغيري، وأن أظل عشيقاً لها طول العمر، أتحرق على لقياها، وأتلصص خلف الشبابيك والأبواب لأفوز منها بنظرة!!..

أنا لا أحب الطرق الملتوية منذ صغري...

وكانت الشجاعة في أن أهرب...

وهربت ... واغتربت عن الشام عشرين سنة .

وكان الحظ في كل خطوة أخطوها في البرازيل ، يفتح أمامي أبواب الرزق والتوفيق على مصراعيها ... ولكني كنت أشعر دائماً أن في سعادتي نقصاً ما يعوضه عليَّ شيء ..

لم أفكر بالزواج أبداً ، ولم أعرَف نشوة الحب على كثرة ما عاشرت من النساء ، كما عرفتها أمام سنية ، فأنا لم أنسها أبداً . كلما بعد بنا العهد تألقت ذكراها في نفسي وازدادت تمكناً منها . وتصبح سنية والشام شيئاً واحداً في مخيلتي ، لا تأتي ذكرى إحداهما إلا مقرونة بالأخرى . وكلما مرت الأيام ازداد حنيني ، ونفد صبري ...

وذات ليلة استبد بي الأرق ، واللوعة على فراق الوطن فما يصبح الصباح حتى أقرر أن أجمع ما كسبته ، وأعود إلى بلدي التي هربت منها يوماً بسبب سنية ..

ولشد ما أفرحني وأدهشني ما لمست في بلادي من تقدم وتطور ما كنت أحلم به ، كما آلمني اختفاء بعض الصور التي كنت ألفتها ، وحننت إليها في غربتي ...

ورأيتني ، ولم يطل مقامي بعد ، أتنسم أخبار سنية ، ووجدتني بالرغم عني ما أبرح أفكر بطريقة تتيح لي الالتقاء بها ...

ولكن الأمر كان أيسر مما توهمت. هل تصدق أن أول دعوة تلقيتها كانت من سنية؟..

دهشت ولم تصدق عيناي ما أرى... لقد تطورنا يا أخي بسرعة غريبة إلى حد خرجنا به عن المألوف.

فسنية التي تركتها قبل عشرين سنة لا تخرج إلى الطريق إلا ملتفة بملاءة سوداء، ولا بد أن يرافقها أحد ذويها. إذ هي تخرج الآن بمفردها سافرة تماماً، ولا ترى حرجاً في أن تدعو رجلاً مثلي إلى دارها لتعرفه على زوجها، ولا رابطة تربطها به سوى أنه كان جاراً لها منذ عشرين سنة...

وأجُدني فرحاً بهذه الدعوة أنتظر ميعادها بصبر فارغ. ولكنني عندما وقفت أمام باب بيتها وجدتني متردداً، خائفاً... أود لو أعود.. خشيت أن أرى سنية قد تغيرت عما كنت أعرفها عليه، وأنا حريص كل الحرص على أن أظل محتفظاً لها بتلك الصورة الرائعة المنطبعة في ذاكرتي، والتي اتخذتها مقياساً لجمال المرأة. ولكن لا مناص لي من الدخول فأنا لم أعتذر عن المجيء.

وكم عجبت عندما رأيتها في الخامسة والثلاثين أحلى منها في الخامسة عشرة. لقد امتلأت قليلاً فازداد جسمها بضاضة ولدانة، ومسحة من الحزن راحت تكسو محياها فيبدو جمالها أعمق وأفتن.

وتقدم إليَّ زوجها ــ رجل قصير بطين ــ تطل البلادة من كل قسمة من قسمات وجهه .. وما أظن أن لديه ميزة سوى أنه ابن عائلة معروفة ، وقد ورث ثروة طائلة جمعها له الآخرون ..

كان هذا هو الرجل الذي اختاره لها أبوها ، وكان عليها أن ترضخ لمشيئته ، مهما يكن الأمر !... وفي لمحة استطعت أن أقدر مدى الضيق الذي عاشت فيه هذه المسكينة ! ..

كان لقاؤنا الأول فاتراً ، فكلانا تلعثم وارتبك أمام صاحبه ، وبدأت الدعوات تتوالى عليَّ من سنية . وأصبح أنا أيضاً أتحين الفرص التي تتيح لي الالتقاء بها ، فكنت أرتاد الأماكن التي ترتادها هي . ولكن ما من مرة أتيح لنا أن ننفرد ببعضنا .. إلى أن كانت ليلة أول البارحة ، وكنت قد تلقيت منها دعوة إلى العشاء في مصيف الزبداني . كانت الدار التي تصطاف فيها سنية مختبئة في بستان كثيف الأشجار .

وأصل في الموعد الذي حددته لي ، أي قبل أن يصل زوجها بقليل ، ولا أدري فيما إذا تعمدت ذلك أم جاء مصادفة . وجلسنا منفردين على الشرفة في ضوء القمر . وكانت سنية ترتدي ثوباً من حرير أزرق له حفيف ناعم ، وعطر البنفسج عطرها القديم تفوح

رائحته .. أتراها تعمدت ذلك أيضاً لتعيد إلى ذاكرتي نفس الصورة التي رأيتها فيها في آخر لقاء لنا؟؟..

اقتربت مني وقالت بصوت ناعم شجي :

لقد حدثتني كثيراً عن أميركا . أما أخبارك الخاصة ، فما سمعتك مرة تتحدث عنها ..

قلت : أو يهمك ذلك؟؟

قالت : يهمني جداً ... أكثر مما تظن ..

فضحكت وقلت : عم تريدين أن أحدثك؟

قالت وعيناها تضحكان : حدثني عن النساء اللواتي أحببتهن هناك .

قلت : أتصدقين يا ترى إذا قلت لك ما أحببت امرأة إلا وفيها شيء منك؟.. أحببت مرة امرأة لأن لها صوت ضحكتك المرحة وأخرى لأنه لها طراوة جسمك اللدن .. أما عيناك الآسرتان .. فكم بحثت عنهما فلم أر لهما مثيلاً ..

فإذا هي تتنهد من عمق ، وتشرد قليلاً ثم تقول :

أحقاً ما تقول؟؟

قلت : أو تشكين بقولي؟

ويعود إلى عينيها ذلك الألق، الذي كانت محته مسحة الحزن التي شاعت في وجهها، وتعطيني يدها، وآخذها بين يدي.. ما زالت طرية ناعمة كما كانت قبل عشرين سنة..

ثم تقول هامسة بصوتها الناعم الشجي:
أما آن أن تنبت لنا أجنحة؟

قلت: أما زلت تذكرين إذن حديثنا عن الأجنحة في آخر وقفة لنا في دياركم البرانية في حي العمارة؟.

قالت: سامحك الله! أو تريدني أن أنسى أحلى لحظات حياتي؟؟.. لو أني نسيت لما سألتك سؤالي:
أما آن أن تنبت لنا أجنحة؟؟..

قلت: لقد آن لنا ذلك.. فهل لك أن تطيري معي؟

قالت: إلى آخر الدنيا إن شئت..

ثم تشير بيدها إلى البستان الفسيح، والفيلا الأنيقة التي تضم زوجها وولديها وتقول:
سأتخلى عن كل ما ترى من أجلك.. كانت تقولها بتصميم وتحدٍّ.

وأطوقها بذراعي، وأشدها إلى صدري، وأشعر بأنفاسها تلفح

وجهي، ويروح قلبي يضطرب، وكياني يرتعش، وتعاودني تلك النشوة التي ما عرفتها أمام امرأة غيرها..

ولكن حركة صغيرة جعلتنا نفترق في مثل لمح البصر ونحن في أوج نشوتنا!..

كانت هذه المرة آتية عن ملاكين صغيرين جاءا يتعثران بثوبين أبيضين للنوم ليأخذا من أمهما قبلة المساء..

قامت مرتبكة وقالت:

سأغيب قليلاً، وتخرج من الشرفة والصغيران يقمزان أمامها، ويتطاولان ليقبلاها في عنقها، وهي تحوطهما بذراعيها، وتحنو عليهما، وتداعبهما:

وأقف برهة، أرقب هذه الصورة الرائعة وهي تبتعد عني شيئاً فشيئاً في البهو الأنيق، صورة أم شابة يحف بها طفلان كملاكين، لوحة رائعة لم يبدعها فنان بعد...

وأروح أفكر وأتساءل:

أيجوز لي أن أفسد هذا الجمال؟

أن أشوه اللوحة الرائعة؟

أن أبدل سعادة الملاكين الصغيرين تعاسة؟

أن أهدم هذا البيت؟

لا ... لا لن أقدم على ذلك ..

وكان للشرفة التي أقف عليها درج متصل بالحديقة ، قفزت درجاته بسرعة ، وهربت .

ثم يحدق سعيد بك بجليسه ويقول :

أتدري لمَ دعوتك الليلة ؟؟

ثم يمد يده إلى جيبه ، ويخرج منها بطاقة سفر إلى أميركا ، يُلوِّح له بها ويقول :

دعوتك لأسهر معك هذه الليلة ، آخر ليلة لي في دمشق حتى يحين موعد الطائرة . وها هو ذا قد حان . خشيت يا أخي أن تنازعني نفسي إليها ، فلا أقوى على ردها ما دمت أنا وهي في بلد واحد ، لا بد أن تجمعنا مناسبات ومصادفات .

لقد عاد حبها إلى قلبي أعنف مما كان ، فإما أن أقدم على أمر أعتقده جريمة ، وإما أن أغادر دمشق إلى غير رجعة ... كما سبق لي أن غادرتها قبل عشرين سنة من أجل سنية .

ثم يقوم متثاقلاً ، وهو يرنو بعينين نهمتين إلى السهل الفسيح الذي ترتاح فيه دمشق ، كأنه يتملى منها وشفتاه تتمتمان بلوعة :

وداعاً يا دمشق وداعاً لا لقاء بعده ! ...

# انـهـزم أمـام طـفـل

أُلقيت على عاتقي ذات صباح مهمة شاقة عسيرة، وكان لا بد لي أن أقوم بها مهما كلفني الأمر، فليس من السهل عليَّ أبداً أن أتوانى عن تحقيق أمنية امرأة على فراش الموت، كانت قد بعثت إليَّ بمن يرجوني أن أقنع ابنتها ـــ وهي أعز صديقة لدي ـــ لتذهب إلى المستشفى وتودع أمها التي تحتضر!

وكانت الصلات قد انقطعت بين صديقتي هذه وأمها منذ افترقت عن أبيها وتزوجت برجل آخر.

وكنت أخشى أن يبوء مسعاي بالفشل، فأنا أعرف صديقتي عنيدة، متشبثة برأيها إلى حد بعيد، لا تطيق أبداً أن يتدخل أحد في شؤونها مهما تكن منزلته أثيرة لديها، لا سيما فيما يتعلق بمشكلتها مع أمها.

وقد وقع ما كنت أحذره.. فقد رفضت سعاد وساطتي في بادئ الأمر، مما جعلني أثور عليها وأقول لها بشيء من التأنيب:

ـــ ما كنت أحسبك قاسية إلى هذا الحد!.. أؤكد لك أنك ستندمين على تصرفك هذا.. بل ستبكين ندماً، ولكن حين لا ينفع الندم، ولا يجدي البكاء!.

ورغم ما قلته لها تظل سعاد قاعدة أمامي جامدة القسمات، لا يبدو على وجهها شيء من اضطراب أو حزن، وترد عليَّ ببرود قتال:

ـــ لن أذهب.. لا تتعبي نفسك أكثر مما أتعبتها. قلت لك أنني أعتبر أمي ميتة منذ زمن بعيد، منذ أصرَّت على الطلاق من أبي لتتزوج من ذلك الرجل التافه.. كنت أتوقع لها هذه النهاية المؤلمة!. ولكن جاءت أسرع مما كنت أنتظر.. سمعت أنه تخلى عنها وهاجر إلى أميركا دون أن يهتم بأمرها، أو بأمر الجنين الذي في أحشائها، إنها الآن تلقى جزاءها.. وقد حزنت عليها ما فيه الكفاية، منذ أقدمت على ما أقدمت عليه، وقد بلي حزني في طيات نفسي كما تبلى جميع الأحزان في قلوب الناس إذا ما عدا عليها الزمن، فلماذا جئتني أنت الآن تريدين أن تبعثي أحزاني من جديد؟.

وينفتح علينا باب الغرفة قبل أن أرد عليها، ويظهر أبو سعاد بقامته المديدة المهيبة، كان ممتقع الوجه، تختلج أجفانه خلف نظارتيه كأنه يحاول تبديد دموعه. كان واضحاً أنه سمع حوارنا،

ويلتفت إلى سعاد ويقول لها بصوت خفيض مضطرب فيه لهجة عتاب وتأنيب :

ـــ سعاد ! يجب أن تذهبي يا بنيتي إلى حيث تدعوك صديقتك .

ثم ينفتل بسرعة ، ويدخل غرفته ويوصد بابه كأنه يخشى أن يتبعه أحد منا ! . .

قلت لسعاد :

لا يجوز لك أن تعصي أباك ، كم هو رجل نبيل ! . أما أنت فما أدري ما أقوله عنك ؟؟

وتمتثل سعاد أخيراً لكلامي فتسير أمامي مستسلمة دون أن تنبس بكلمة . ولما ركبنا السيارة لاحظت أنها تعاني حرجاً شديداً . كانت صامتة ينضح وجهها عرقاً . وتتلاحق أنفاسها كمن أصيب بحمى طارئة . وقبل أن نصل بقليل تلتفت إليَّ وتقول :

أحقاً أنها تموت كما تزعمين ؟؟ إنني لا أريد أن أصدق ذلك . هذه حيلة منك قد اصطنعتها كي تجمعي بيننا بعد فرقتنا الطويلة .

قلت لها :

ـــ أقسم لك أن خالك قد جاءني هذا الصباح وقال لي :

إن أمك قد أصيبت بنزف بعد الولادة ، وقد قطع الطبيب كل

أمل من شفائها . وكانت تهذي طول الليل ، وتطلب رؤيتك بإلحاح . فما أن طلع الصباح حتى هرع إليَّ يرجوني أن أقنعك بالمجيء .

قالت : ما أصعب هذا اللقاء عليَّ !.

وراحت تفرك يداً بيد من شدة اضطرابها . ورحت أهوّن عليها الأمر ما استطعت . ولما وصلنا المستشفى كان بهوه خالياً إلا من بضع ممرضات كن منهمكات بأعمالهن ، ما يكدن يظهرن حتى يختفين ثانية . وكان خال سعاد واقفاً لصق أحد الجدران ، وقد أسند رأسه إلى عارضة باب ، فما أن رآنا حتى قال كلمة واحدة خرجت من فمه كقذيفة :

ماتت !.

ويشير بيده إلى سعاد إشارة تفيد أن افرحي أو اشمتي ما شاءت لك الشماتة .

ويفاجئني الخبر فأجلس على أحد المقاعد مذهولة ، بينما تظل سعاد واقفة مكانها ، كأن قدميها قد سمرتا بالأرض ، تنظر حولها بعينين متسعتين من الارتياع ، وقد بدت عليها مسحة من بلاهة ، ما رأيتها على وجهها قط .

وفجأة تظهر امرأة خالها من خلف أحد الأبواب . امرأة

صغيرة الجسم مكهربة الوجه، مربدة السحنة، تنم نظراتها عن خبث ولؤم. وتقف متحفزة على بعد خطوتين من سعاد. وكأنها استطاعت في آخر لحظة أن تكبح جماح لؤمها، فاكتفت بأن قالت لها:

أخيراً وصلت!.. يا ليتها لم تخلفك!..

ثم تلتفت إلى زوجها وتقول له متحدية:

ـــ مشاكل أختك معقدة حية ميتة!.. لم تعد تجوز عليها إلا الرحمة. قل لي ماذا قررت أن تفعل بشأن الطفل؟؟

أقول لك ولآخر مرة: لن أدخله بيتي، لسنا ملزمين به أبداً، يكفيني ما ألقاه من متاعب أولادي.

ويرفع الرجل يديه إلى السماء ويقول:

ما هذه المصيبة يا ربي؟!.. أتريدين أن ألقيه على قارعة الطريق؟ ومن سيكفله إن لم أكفله أنا؟ من أين لي أن أطول أباه؟؟

وتلفظ سعاد كلمتين فقط، توجههما إلى امرأة خالها دون أي تمهيد:

هاتي الطفل.

وكأن الكلمتين الصغيرتين قد حلتا الأزمة المعقدة، فإذا الحزن

ينزاح قليلاً عن وجه الرجل، وتتنفس امرأته بارتياح كمن ألقى عن كاهله حملاً ثقيلاً، ثم تذهب مسرعة، وتغيب قليلاً، وتعود حاملة الطفل على ذراعها ملفوفاً بقماط أبيض، وقد أسدلت على وجهه منديلاً شفافاً يدل على أنه مستغرق في نومه، وبيدها الثانية كانت تحمل صرة صغيرة يبدو أنها جمعت فيها أشياء الطفل. وتعطيها إلى سعاد وهي تقول لها:

ـــ إنه أخوك على كل حال، وأنت أولى به من الجميع.

وتتناول سعاد الطفل كما يتناول الشيء!... ثم تحمل الصرة وتتجه نحو الباب بخطى مضطربة، دون أن تكلم أحداً. ولقد تركتني دون أن تلتفت إليَّ أو تطلب العون مني، أنا التي أقنعتها بالمجيء، ورافقتها إلى المستشفى.. ويبدو لي تصرفها غريباً. وقد فسرته بأنها لا تريد أن يطّلع أحدٌ على ما سيجري بينها وبين أبيها إذا ما فاجأته بالطفل.

وصممت بعد ذلك على أن لا أزورها ما لم تبدأ هي بالزيارة، أو تدعوني إليها، كي لا أسبب لها حرجاً. رغم أني كنت متلهفة على معرفة أخبارها أشد اللهفة.

وبعد شهور قليلة تردني منها هذه الرسالة التي تقول لي فيها فيما تقول:

«كلما آويت إلى فراشي استبد بي الأرق، وراحت ذاكرتي تستعيد دقائق الأمور التي كانت تجري في بيتنا منذ بدأت أعي إلى يومي هذا. فإذا الحقائق تنكشف لي عن أمور تذهلني، وتخيفني، لأن من الصعب علينا أن نحكم على أنفسنا في معركة نخوضها، ولكن عندما تنتهي المعركة وتصبح رهينة في طيات الزمن، تتراءى لنا أحداثها من بعيد، وتزداد وضوحاً كلما بعد بها العهد، فنستطيع عندئذ أن نتجرد من ذاتنا الغابرة، وأن نحكم على أنفسنا حكماً قد لا يبعد كثيراً عن الصحة.

لقد انتهت معركتنا بموت أمي!.. بعد أن ظلت محتدمة في أسرتنا الصغيرة سنين طويلة. لقد تبين لي أننا كنا ننسج مأساتنا بأيدينا، ننسجها خيطاً خيطاً بتؤدة، وحرص، وروية. دون أن نفطن بأننا سنكون الضحايا.

وكنت ــ ويا هول ما كنت ــ أقبض على الخيوط بيدي، وأوزعها كيفما شئت. وأحب الآن أن أشرح لك كل ذلك ففي شرحه راحة لي، ووفاء لأمي.

عندما كبرت قليلاً كان لا بد ــ كلما رافقت أمي ــ أن تتردد أمامي جملة تقهرني وتحز في قلبي:

هذه ابنتك؟؟ سبحان الله إنها لا تشبهك أبداً.

وأفهم أنهم يريدون أن يقولوا أنني لست جميلة كأمي .

وتضحك أمي ضحكة هازئة تجرحني في صميمي وتقول :

كأنها صورة عن أبيها ، وهي مثله أيضاً ، ذكية وتحب الدرس والمطالعة .

وأدرك أنها تقول ذلك مراعاة لي . ولكن هذه المراعاة كانت تؤذيني أيضاً وتزيد في ألمي . وبالرغم من صغر سني كان لدي القدرة الكافية لأن أواري هذا الشعور في أعماق نفسي فما يبدو منه شيء ولكن لم يلبث مع الأيام أن استحال حقداً وكرهاً لأمي .

كم كنت أتمنى أن أكون جميلة مثلها ! ... وأذكر أنني كثيراً ما كنت أجلس صامتة مكبوتة ، أتفرس في وجهها المشرق الجميل ، وأقارن بينه وبين وجهي ذي الأنف الكبير والعينين الصغيرتين والبشرة الكالحة . فأشعر بالغيرة تلذع كبدي الصغير ، وبالحقد يملأ نفسي الغضة ، ولا أجد ما أنفس به عن كبتي سوى أن أشاكس أمي . وكلما رأيتها منزعجة كنت أشعر بارتياح ، وأظل أمعن في استفزازها حتى أحملها على ضربي ، حينئذ كان لا بد أن ينتصر لي أبي فيقع بينهما من جراء ذلك خلاف شديد ، كنت أراقبه فرحة شامتة .

وتستمر هذه الحال طوال مدة طفولتي ، حتى ينشأ شيء من

النفور بيني وبين أمي، وكانت المسكينة بدافع من حنانها تحاول دائماً أن تمحوه، بينما أنا أثبت أصوله.

ولما تخطيت الطفولة راحت مشاكستي لأمي تأخذ شكلاً آخر. كنت قد برزت في دراستي، وراحت تظهر عليَّ بوادر ذكاء عجيب. وكان أبي فخوراً بي يقدمني إلى زملائه الأساتذة معتزاً بذكائي وثقافتي التي قلما يحصّلها من كان في مثل عمري. وكان يشركني بالأحاديث التي تدور بينهم. ولما استويت صبية رحت أطلب منه أن يدعو إلى بيتنا أهل الفكر والأدب من رفاقه، حتى أمست سهراتنا ندوات لا تسمع فيها إلا أحاديث الأدب والفن. وقد تمتد أحياناً حتى منتصف الليل، وكانت أمي تجلس بيننا صامتة. وكلما حاولت أن تشترك في بعض المناقشات ظهر جهلها جلياً. وكنت أبتسم بخبث هازئة بها. وأُشعرها دائماً بأن لا مكان لها بيننا، فكانت في أكثر الأحيان تنسحب من بيننا غاضبة وتقعد في غرفتها مقهورة، أو تستلقي على سريرها وحيدة ناقمة.

كنت أحب أن أثبت لأبي، ولأمي، وحتى لنفسي أيضاً بأن الجمال لا قيمة له إذا ما قورن بالذكاء والثقافة، وأن الأناقة التي تستهلك معظم أوقات المرأة ما هي إلا دلالة واضحة على تفاهتها. وكان أبي يؤيد رأيي دائماً.

وكانت أمي مقابل ذلك تهزأ بجديتنا، وتسخر بكل ما نراه جليلاً عظيماً. ويخيل إليَّ الآن أن الثرثرة الفارغة التي كانت تضجرنا بها كلما رأتنا غارقين في كتبنا، ما هي إلا من قبيل الدفاع عن النفس.

ويظل هذا حالنا سنين طويلة حتى يأتي يوم تتسع فيه الشقة بيننا فتجد أمي نفسها كالغريبة في بيتها، تقعد بيننا كالضائعة، لا أحد يعيرها اهتماماً، أو يعمل برأيها. وليس من السهل أبداً أن تستسلم لمثل هذا الموقف امرأة معتدة بنفسها، كأمي، جميلة لا تزال في عز صباها، لم تتخط السادسة والثلاثين من عمرها، عندما تكون خارج بيتها تحاط بكل حفاوة واهتمام، حتى إذا عادت إليه شعرت بأنها امرأة لا أهمية لها تكاد تفقد ثقتها بنفسها. فليس عجباً إذاً أن ترغب بالخروج من البيت دائماً أبداً. فكانت أحياناً تمضي السهرة بالسينما، أو عند بعض صديقاتها بينما نظل أنا وأبي غارقين في دراساتنا وندواتنا، ويصبح غياب أمي عن البيت أمراً مألوفاً لدينا. ويبدأ شيء من الجفاء واللامبالاة يسود حياتنا بالنسبة لأمي.

وفي غمرة ذلك كله تتعرف أمي على رجل هو قريب إحدى صديقاتها، لا يلبث أن يعجب بها، وتعجب به، فيطري جمالها وفتنتها ويمتدح أناقتها ولباقتها، وكان بذلك كله يعيد إليها ثقتها

بنفسها، في سن هي أحوج ما تكون فيه إلى تلك الثقة .. ويشعرها بأهميتها التي فقدتها بيننا .

فكانت أن تشبثت به وأصرّت على الطلاق من أبي لتتزوج منه .

أما أبي المسكين فكان كصبي ملَّ دميته كما تملُّ الدمى، فأهملها في ركن من بيته مطمئناً إلى وجودها بقربه، وأنه يستطيع اللهو بها كلما عاودته الرغبة فيها . ولكن لما جاء غيره يسلبه إياها حلت في عينيه، وصعب عليه الأمر حتى كاد يخيل إليه إنه غير قادر على فراقها . وبالرغم من ذلك كله لم يستطع أن يفرض نفسه عليها .. واضطر أن يوافق على الطلاق مرغماً، أمام إصرارها الشديد الذي جرح كرامته، وأهان رجولته .. وكان عليَّ وحدي أن أداري آلامه، وأهوِّن عليه الأمر ما استطعت . فكنت أثور على تصرف أمي، وأثبت له دائماً أنها امرأة تافهة لا تستحق أن تكون زوجة لرجل مثقف، مفكر مثله .

كنت لا أزال أخوض المعركة معصوبة العينين، حتى إذا جاءت النهاية المريعة صحوت فجأة، وراحت تنزاح الستور أمام ناظري ستراً ستراً .

أتذكرين موقفي يوم المستشفى؟ لقد خُيِّل إليّ في تلك

اللحظة أن أمي كانت تلح في طلبي لتعهد إليَّ بالطفل، فمهما كان أمري معها، فأنا أرأف به من امرأة أخيها اللئيمة.

ومنذ ذلك الحين راح يتحرك في أعماق نفسي شيء يوحي إليَّ أنني كنت وحدي المذنبة.

ولما جئت بالطفل إلى بيتنا كان أبي يذرع الردهة جيئاً وذهاباً من الباب إلى الشباك ليطمئن على مصير أمي فما يزال يحفظ لها في قلبه شيئاً من العطف والحب. ولما رآني أحمل الطفل على ذراعي نظر إليّ مشدوهاً لحظة ثم قال:

ـــ ويلك ماذا تحملين؟؟.

قلت متحدية:

ـــ أحمل أخي... لقد ماتت أمي بعد أن عهدت إليَّ به، لا بد لي أن أرعاه.. وأنفجر باكية، ويزعق الصغير على ذراعي زعيقاً متواصلاً، مما يزيد في حرج الموقف.

فيهرول أبي إلى غرفته كأنه يهرب منا وهو يقول:

ـــ افعلي ما تريدين.. ولكن إياك أن تريني وجهه، أو تسمعيني صوته.. ثم يصفق الباب خلفه صفقة قوية تأتي كاحتجاج صارخ على تصرفي الوقح دون استشارته.

وأدرك أنني أظلم أبي. فوجود الطفل بيننا سينغّص عليه عيشه، فهو ابن غريمه. وابن المرأة التي تخلت عنه بعد عشرة عشرين سنة. وعدا ذلك لا بد أن يتقوّل الناس بما لا يليق به. كذلك فإن وجود الطفل بيننا سيحول دون نسيان المأساة.

ولكن لا سبيل للتراجع أبداً.

وأختار للصغير أبعد غرفة عن غرفة أبي. ويبدأ يدبُّ بيننا شيء من الجفاء والبرود. أبي معتكف في غرفته بين كتبه وأوراقه لا يبرحها إلا نادراً، وأنا منصرفة للعناية بالصغير وللدراسة فيما تبقى لي من الوقت. وراح يخيّم على بيتنا صمت كئيب لا يخدشه إلا زعيق الطفل بين كل حين وآخر. كأنه يذكرنا بمرارة واقعنا كلما سهونا عنه. ولم تعد سهراتنا ندوات يؤمها أهل الفكر والأدب كما كانت في الماضي، الأمر الذي أضجر أمي. وكأن الأقدار شاءت أن تنتقم منا على يدي هذا الصغير، وبالرغم من ذلك كله بدأت أحبه.

كنت أجد في رعايته لذة لا مثيل لها في حياتي. كنت أعود إلى البيت متلهفة على رؤيته. وراح ينمو بسرعة غريبة حتى غدا في بضعة شهور طفلاً رائعاً. كنت أضعه في حجري أناغيه وألاعبه، وأتفرس في تقاطيع وجهه المكلثمة، وفي عينيه الواسعتين، إنه صورة

مصغرة عن أمي ! ... ترى لو أن هذا الشبه جاء فيَّ أنا أما كان تغير مجرى حياتنا من أساسه ؟

كنت أتمنى أن تواتيني الشجاعة الكافية لأبسط هذه الحقائق التي اكتشفتها أمام أبي . لا بد أن يغفر لأمي ، وسيحب الطفل حتماً . ولكنه سيدينني كما أدنت نفسي ... ومن يدري ربما كرهني ، وهذا ما لا طاقة لي به .

وذات ليلة وبينما كانت هذه الفكرة تنخر في رأسي كسوسة دؤوب ، إذ يتناهى إليَّ بكاء الصغير ، وأتلكأ عنه قليلاً فإذا البكاء ينقطع فجأة ، مما يثير خوفي عليه ، فأقوم بسرعة لأتفقده ، فإذا أبي قد سبقني إلى غرفته . وأقف خلف الباب من حيث أراه ولا يراني ، وكم كانت دهشتي عظيمة حين رأيته يحمل الصغير بين ذراعيه ، ويهدهده بحنان واضح ، ـــ هو الذي كان لا يريد أن يراه أو يسمع صوته ـــ ولكن الصغير لم يسكت ، فراح يؤرجحه ذات اليمين وذات الشمال ، حتى إذا نام أعاده إلى مهده بتؤدة ورفق ، ويقف يتأمله وفي نظراته عطف ولين ثم تنحدر من عينيه دمعتان يمسحهما بأصابعه .

مسكين أبي لماذا يخفي شعوره عني ؟ أترينه يخجل بتسامحه ، وحنانه ، ويرى فيهما خنوعاً وضعفاً ؟

حقده المرُّ ذاب كله في حلاوة ابتسامة صغيرة على ثغر

طفل بريء.. وكبرياؤه وجبروته تداعت كلها أمام طفولة هشة ضعيفة!

لقد انهزم أمام طفل!..

لا بد لي أن أمزق هذا الحجاب القائم بيننا. واقتحم عليه الغرفة فينظر إليَّ مرتبكاً ثم يبتسم بخجل، وألقي رأسي على كتفه، ونجهش بالبكاء معاً».

# سلاطين مخفية

بعد قليل سيصل إلى الضيعة... ما أشد حنينه إليها... ويشعر أنه خفيف الوطء على الأرض. يسير وكأنه مجنح يطير.

بعد ربع ساعة فقط سيمرغ جبهته على تربتها السمراء، سينشق عبقها الطيب، سيعانق الدلبة الضخمة التي تظلل العين في ساحة القرية. ما أشد شوقه إليها.. ويتذكر كيف كان ورفاقه يتسلقونها كالنسانيس الصغيرة ويختبئون بين أوراقها الكثيفة ثم يقطفون حبات الدلبة ويقذفون بها الصبايا وهن يملأن جرارهن من العين، وكم كانوا يضحكون عندما تنصب عليهم شتائمهن المقذعة.

ويمد يده إلى عبه يتحسس السند الذي استلمه البارحة كأنه يطمئن على وجوده. لا هو ليس حلماً، ولا وهماً، إنه حقيقة واقعة... وها هي ذي يده تقبض عليه. لقد أصبح ملّاكاً... ويميل برأسه إلى الوراء معتزاً، ويضحك بعمق ملء فمه وقلبه كما لم يضحك أبداً.

ويمر بخاطره قول زميله محمود الذي كان يعمل معه في رصف الطرق:

ــ يا بختك يا حسين .. ستأخذ نصيبك من الأرض، يا ليتني فلاح مثلك!.. ما في أبرك من الأرض. المثل يقول:

فلاح مكفي سلطان مخفي.

ــ هذا صحيح يا محمود، ولكن الفلاح لا يصبح يا أخي مكفياً إلا إذا ملك الأرض. سنملكها.. سنصبح كلنا سلاطين مخفية.. لن تغضب السماء بعد اليوم، ولن تحبس المطر عن الأرض أبداً وقد عادت الأرض إلى أبنائها. لن تعطش أراضينا، سنسقيها من عرقنا إن شح ماؤها.

ويغذ السير خفيف الوطء كأنه يطير.

منذ عشر سنوات هجر قريته ولم يطأ أرضها أبداً. جاء يعمل في المدينة. وكان كلما نازعه الحنين إلى مراتع طفولته وملاعب صباه ينبش من أعماقه تلك الذكرى المؤلمة ليتخذها كترس يصدّ به حبه العنيد لها حتى يحيله مقتاً وكرهاً.

كانت أيام البيادر أحب المواسم إليه. كان يلعب ورفاقه بين كومات القمح أو يركبون على النوارج التي تدرس القمح المفروش على

البيدر دوائر ، دوائر . وكان صوت المذراة يملأ البيدر ضجيجاً ، وأبوه مع رجلين آخرين يقفون أمام المذراة يلقمونها القمح المدروس بحركة آلية فتفصل عنه التبن وتلقيه جانباً ، ويأتي رجال آخرون يرفعون القمح بالقفف ويجعلونه كومات كومات كأهرامات سامقة . وكان يعج من المذراة غبار كثيف ينعقد كسحب متراكمة فوق رؤوس الرجال ثم يحط عليهم شيئاً فشيئاً ويلتصق بأجسادهم التي كانت تنضح عرقاً ويُكوِّن فوقها طبقة لزجة ، وعندما تنحدر الشمس وراء الجبل كانت أشعتها الحمراء تنفذ خلال الأشجار المحيطة بالبيدر وتستقر على أهرامات القمح فتبدو وكأنها رسوم ذهبية عجيبة تتراقص كلما هبت نسمة . وعندما تسقط الشمس وراء الجبل وتختفي الظلال إيذاناً بانتهاء النهار ووقف العمل . تصمت عندئذ المذراة عن ضجيجها ، ويفك الدرّاسون الثيران من النوارج ويسوقونها إلى مرابضها ، ويسمع من حين لآخر جئير أصواتها كأنها تحتج على شيء ما . ثم يخيم سكون حلو على البيدر وتحوم فوقه أسراب العصافير وتهب نسمات بليلة تسترخي لها أجساد الرجال المرهقة فيضطجعون على الأرض يدخنون صامتين ساهمين . عندئذ لا بد أن يظهر الأفندي قادماً من أول البيدر يحف به بضعة رجال . فيقف أبوه ورفاقه متهيبين بعد أن يطفئوا سجايرهم بأصابعهم .

كان يكره الأفندي ، ولا يعرف لذلك سبباً ، وكثيراً ما كان

يتساءل في نفسه: عجباً لهذا العجوز المعروق الوجه، القاسي النظرات الذي يسمونه الأفندي، لمَ يهابه هؤلاء الرجال الأشداء؟.

ألأنه لا يضحك أبداً، ولا يرد تحياتهم إلا بتكلف؟ وكان الأفندي يعدّ كومات القمح ويقيد عددها في دفتر يحمله في يده بينما يسير وراءه رجل يحمل بيده قطعة خشب يسمونها الروشم يمررها على كومات القمح التي أحصاها الأفندي فتترك فوقها خطوطاً وأشكالاً تشبه الكتابة، وكان حارس البيدر يطارد الأطفال ويضربهم إذا اقتربوا من كومات القمح المرشومة. وكان يرى ذلك أصيل كل يوم من أيام البيدر فلا يفقه له معنى.

وذات يوم كانت أمه مريضة. وكثيراً ما كانت أمه تمرض فتنطرح على الحصيرة أياماً وحدها في غرفتهم المعتمة، وأحياناً كان يسمع الداية أم سليم تقول لأبيه:

ــ طرحت مراتك صبياً!. لا تزعل يا بني ماله شقاء في الدنيا. العوض على الله، أنت شب ومريم صبية، الله يخلي حسين شمعة تضيء مدينة. ويتمتم أبوه والأسى باد عليه بكلمات لا يفهمها، ثم يضع في يد أم سليم شيئاً من المال تتفحصه بعينيها ثم تدسه في عبها وهي تتبرم وكأنها غير راضية. وبعد أيام قليلة كانت أمه تخرج من البيت هزيلة شاحبة تجر رجليها وتتبع أباه لتعمل معه في الحقل.

وكثيراً ما كان يغمى عليها وهي تعمل فيأخذ أبوه قليلاً من الماء ويرش به وجهها حتى تستفيق ثم يعود بها إلى البيت وهو يشتم ويلعن الحياة والعمل بينما تظل أمه مستسلمة تتوكأ على ذراع أبيه وتجر رجليها دون أن تنطق بكلمة .

لا شك أنها الآن كعادتها تطرح ولداً ما له شقاء في الدنيا كما تقول الداية أم سليم . ويوصيه أبوه قبل أن يخرج من البيت ، أن يظل إلى جانب أمه لأنها مريضة أكثر منها في كل مرة .

كانت تئن أنيناً متواصلاً ، وتطلب منه في كل آونة أن يناولها إبريق الماء فكانت تفرغه في جوفها ثم تعود إلى أنينها ، وكان وجهها يزداد شحوباً ، ويشعر بضيق وملل ، ويهم أن يتركها وشأنها ، ويذهب إلى البيدر ليلعب مع رفاقه ولكنه خشي أن يضربه أبوه ، فكان يكلمها ليبدد مله فلا ترد عليه . ثم راحت تشخر شخيراً مخيفاً ، كان أبوه ، يشخر أحياناً عندما ينام ويغمض عينيه ولكن أمه الآن مفتوحة العينين شاخصة بهما إلى السقف . ماذا ترى في السقف يا ترى ؟؟

وينظر إلى حيث تنظر فلا يرى شيئاً .. ثم يرتد بصره إلى الأرض فيرى خطوطاً من الدم تجري من الحصيرة إلى أرض الغرفة ثم تتكوم في العتبة بقعة كبيرة تنتشر منها رائحة تبعث على الغثيان .

وتصمت أمه عن الشخير فجأة بعد أن يرتعش جسمها

قليلاً، وتظل عيناها مفتوحتين شاخصتين إلى السقف ويتملكه هلع شديد فينظر إليها بعينين متسعتين. ويشعر بدوخة، ولكنه يقول بصوت مسموع وكأنه يريد أن يؤكد ذلك لنفسه: نامت.

ثم ينسل من الغرفة على رؤوس أصابعه ويغلق بابها بتؤدة وينطلق راكضاً في الزقاق كأنه يفر من شيء يلاحقه.

ويتوقف قليلاً حين يسمع صوت بياع حلاوة ينادي بصوت حنون منغم على الحلاوة الجوزية والسمسمية، ويطف ريقه. منذ أمد بعيد لم يذق طعم الحلوى.. وكان يعرف أن بياع الحلاوة يقايض على الحلاوة بالقمح ويركض نحو البيدر ويملأ طاقيته من أول كومة ويرتد إلى بياع الحلاوة فيدفع إليه القمح ويتناول منه قطعتي حلاوة، وينظر إليهما بفرحة وشراهة ويلحس من كل واحدة لحسة ويسير على مهل نحو البيدر. سيقعد هناك ويأكلهما على مهل ليتلذذ بهما.

كان في البيدر شغب وضجة. ويرى الأفندي واقفاً أمام كومة قمح يرغي ويزبد ويقول لمن حوله: لقد سرقت الكومة وأنا لا أزال في البيدر ويشير بأصبعه. انطمست الحروف وانهارت الخطوط إما أن أعرف السارق أو أخصم مدّين من حصة كل واحد منكم.

ويقف مبهوتاً، الآن عرف الغاية من رشم كومات القمح بالخشبة. ويحتج الرجال ثم يستعطفون الأفندي ولكن الأفندي لا

يلين . كان هو إذن سبب هذا البلاء ! .. وترتخي يداه وتسقط منهما قطعتا الحلاوة فوق التبن فلا يأبه لهما أبداً ، ويرى أباه يخرج من البيدر ، ويتجه نحو بيته وهو يبربر بشتائم لا يفهمها ، فيتبعه صامتاً حزيناً ، وما أن يدخل أبوه الغرفة حتى يحملق بأمه ــ التي لا تزال شاخصة بعينيها نحو السقف ــ ثم يصرخ : باطل عليك يا مريم ! ! .. عملتيها . ثم يضرب جبهته ويبكي بصوت عال كالأطفال ، ويحس هو وكأنه يختنق . كان يريد أن يبكي فلا يستطيع ، إن الشعور بالذنب بدأ يعذبه . كان يعرف أن أمه قد ماتت ، وكان يجب عليه أن يتألم ويبكي ويخبر أباه ولكنه لم يفعل . كان يريد أن يهرب ولكنه لم يفعل . كان يريد أن يهرب من مأساته فراح يخدع نفسه ويتجاهل الواقع ليبعده عنه ما استطاع . أما الآن فلم يبق أي مجال للتمويه . كان يقف مذعوراً أمام الحقيقة فلا يدري كيف يتصرف ، ولا كيف يتألم كأنه ضائع في متاهة وقد فاجأه فيها وحش مخيف فوقف أمامه مصعوقاً ينظر إليه بعينين متسعتين هالعتين ، ويريد أن يفر فلا يقوى على الفرار .

ولا يدري كيف شاع الخبر في الضيعة فامتلأ بيتهم رجالاً ونساءً ، وتقول جارتهم أم بسمة لابنتها الصغيرة بسمة : خذي حسين إلى دارنا وابقي معه هناك . وتسحبه بسمة من يده فيتبعها صاغراً .

وما أن يدخلا الدار حتى يشعر هو بارتياح كأنه قد فك من قيوده .. وينفجر باكياً . ما ألذ البكاء عندما يستطيعه الإنسان . ويود ألا ينتهي من بكائه أبداً . وكانت بسمة تبكي معه وتمسح دموعه المنسكبة على خديه بيديها الصغيرتين ، وتربت كتفه بحنان ، ويعود أبواها ، ويلاطفانه حتى يهدأ قليلاً . وينام ليلتئذ على حشية إلى جانب بسمة فيشعر بشيء من الاطمئنان والرضى يتسرب إلى قلبه رغم حزنه الشديد . ومنذ ذلك الحين راح يلازم بسمة وأهلها فيجد عندهم رعاية وعطفاً كان في أشد الحاجة إليهما ـــ لا سيما بعد أن تزوج أبوه ـــ ويصبح مع الزمن لا يستطيع فراق بسمة أبداً . كان يحب أن يعمل حيث تعمل هي فيخفف مرآها كل شقاء يلم به . ولكن الذي كان يغيظه تماماً هو أن بسمة التي تصغره بسنة واحدة كانت تبدو شابة وكأنها أكبر منه ، وكانت تزداد مع الأيام حلاوة فما أن تجاوزت الرابعة عشرة حتى أصبحت أحلى بنت في الضيعة ، قامتها مديدة وعيناها بلون العسل الصافي ، ووجهها أسمر مستدير تشوبه حمرة كرغيف القمح عندما تلفحه نار التنور . وعلى خدها الأيسر شامة بنية كأنها فلقة بنّ محمصة . وكان شباب الضيعة يترددون إليها ولكنها كانت تؤثر عليهم جميعاً صديقها القديم حسين .

وذات مرة كان من عادة الأفندي أن يسخر صبيان الضيعة

أيام البيدر ليحملوا أكياس القمح ويضعونها في السيارات التي ستقلها إلى الأسواق . وكان حسين عندما يحمل الأكياس يتعمد أن يمر أمام بيت بسمة الذي كان قريباً من موقف السيارات ليراها في رواحه ومجيئه . وكان يرى دجاجاتها تلوب فلا تعثر على حبة قمح فكان يثقب بظفره الكيس الذي يحمله فتتساقط بضع حبات من القمح وتتراكض الدجاجات لتلتقطها ، وكم كانت تضحك بسمة لمرآها ويضحك هو ، ويكتشف الوكيل أمره فيشكوه إلى الأفندي . وعقوبة الأفندي لا تتغير أبداً خصم مدّ من حصة أبيه لأنه سرَّاق !

في تلك الليلة قال له صديق : إذا أردت أن تأمن شر الوكيل فما عليك إلا أن تبتعد عن بسمة ما استطعت لأن الوكيل خطبها البارحة من أبيها وسيتزوجها آخر موسم الحصاد .

هذه المفاجأة حطمت آماله كلها .. لقد خيل إليه أنه يسمع صريرها وهي تنسحق كحشرة تحت مداس الوكيل .. كان واضحاً لديه أنه أضعف من أن يدخل معركة مع خصمه . ويفكر أن يهرب مع بسمة فربما طاوعته على ذلك ولكنه لا يلبث أن يعدل عن رأيه هذا ، فليس سهلاً أبداً أن يفلتا من قبضة أبيها . وتبدو له الحياة في الضيعة ذليلة مهانة لا تطاق أبداً .. فليس أمامه إذن إلا الهرب منها .

لا سيما وقد أصبح أبوه ــ أحب الناس إليه ــ وكأنه يضيق به بعد أن تزوج، ودائماً بينهما شيء من جفاء.

لم ينم ليلتئذ أبداً. فما أن أسفر الصبح حتى تسلل من مرقده، وخرج من بيت أبيه وراح يركض نحو المدينة دون أن يلتفت إلى ورائه، لم يودع بسمة، ولم يلق نظرة على الأماكن الحبيبة إليه خشية أن يتخاذل أو يخونه قلبه فيعدل عن عزمه.

وتبتلعه المدينة.. ويضيع في خضمها الواسع كأمثاله من الكادحين. عشر سنين كاملة، كان يكافح ليعيش. ويبلغه ذات يوم خبر توزيع الأراضي فلما تحرى الأمر وجد اسمه بين المستحقين. فعاوده الحنين إلى القرية. لم يمت حبه للأرض رغم مقاومته له، كان يزداد مع الأيام عنفاً.

ويصل ساحة القرية. كان يتفحص كل ما تقع عيناه عليه. لم يتغير شيء أبداً خلال عشر سنوات. سوى أن الدلبة ازدادت ضخامة ويرى جيلاً من الأطفال يلعبون في الساحة كأنه لم يتغير أيضاً، حفاة، قذرين، يرعى الذباب في وجوههم وعيونهم، يتسلقون الدلبة كالنسانيس الصغيرة. والبيوت العتيقة التي تركها وهي على وشك الانهيار لم تهبط خلال عشر سنوات ما زالت قائمة بأعجوبة تسند جدرانها المتداعية بعضها بعضاً.

ويسمع أصوات الرجال تنبعث من قهوة أبي نواف . ويسرع نحو القهوة . هل سيعرفونه يا ترى؟ . هل سيذكرون حسين حمود الذي فرّ يوماً من الضيعة طري العود ، ينوء بحمل حقده الكبير وخيبته المرّة؟ . لقد عاد إليها اليوم قوي الساعدين يحمل قلباً يفيض حباً وأملاً .. وينظر من نافذة القهوة . لقد شاخ الرجال الذين تركهم شباباً . ولكن هاماتهم مرفوعة أكثر منها يوم كانوا شباباً ، وفي عيونهم ألق غريب لم يعهده فيها أبداً ، ألق تنعكس فيه ــ كما خيل إليه ــ صور حقول يانعة الخضرة وبيادر طيبة المواسم . حقاً إنهم لسلاطين مخفية .

ويرى أحمد زلحف يتحدث مع علي برهوم وسمعه يقول له : تعال نتعاون أنا وأنت على حفر بئر بين أرضينا . ويسمع آخرين نسي اسميهما يتشاوران على شراء تراكتور .. سيجد هو أيضاً من يتعاون معه ، ويشعر بغصة ، لقد مات أبواه دون أن تتألق عيونهم كالآخرين ! ماتا وهما يشربان الذل كل يوم بحقد مرٍّ صامت ! ... ويذهب نحو العين لِشرب جرعة ماء يدفع بها غصته ، فيرى أمامه امرأة هزيلة شاحبة تجر رجليها نحو العين ، لقد ذكرته بأمه ، ويتفرس في وجهها ، فإذا على خدها الأيسر شامة بنية . إنها بسمة ! ... ويجد نفسه يفر من أمامها راكضاً ويختبئ خلف الدلبة ، كان يريد ألا يشوه تلك

الصورة الحلوة التي يحفظها لها في ذاكرته . لا شك أن المسكينة كأمه تماماً تطرح أطفالاً ما لهم شقاء في الدنيا .

ويقول بأسى مرٍّ : وستموت قبل أن تتألق عيناها !.

# نسمة الصبا

قالت لها جدتها وقد رأتها تصفف شعرها أمام المرآة:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟.. إلى الجامعة؟؟ أم إلى عرس؟؟

متى كانت بنات المدارس يصففن الشعور، ويصقلن الخدود؟!. كل شيء تغير آخر الزمان! إلى متى تضيقين ثوبك؟ ألا تخافين الله؟.

إن بلاءكن يعمنا جميعاً يا بنات المدارس!

لقد حبس الله عنا المطر فازداد الغلاء، وسلط علينا الجراد، والأوبئة، والأجانب، ورفع الرحمة من القلوب، كل ذلك من جرائكن، ولا واحدة منكن تعتبر!.

ولكن اللوم لا يقع عليك وحدك، بل على أبيك الذي لا يستمع إلى كلامي فيلجأ إلى الشدة في تقويمك. أين رجال الأمس من رجال اليوم؟!.

عندما كنت في مثل عمرك رآني أبي مرة أتزين أمام المرآة ــ وكنت أرملة وأماً لطفل ــ فسحبني من شعري، وصفعني صفعة أليمة، وقال لي بلهجة ما زلت أذكر قسوتها إلى الآن:

لمن تتزينين يا لعينة؟؟.. أنا ما عندي بنات يمضين الساعات أمام المرايا، أفهمت؟.

ومنذ ذلك اليوم ما عرف شعري التصفيف، ولا وجهي المساحيق.. الله يرحمه كم كان يحسن تربية البنات.. أما أبوك فسيندم حين لا ينفعه الندم!.. صدق من قال:

هّمْ البنات إلى الممات!..

ولكن الصبية وكانت قد تجاوزت الثامنة عشرة لم تكن لتعير جدتها العجوز الثرثارة أي التفات، بل استمرت في هندامها أمام المرآة بتأن، ثم تأبطت كتبها وراحت تهبط الدرج ثلاثاً ثلاثاً، وهي تدندن أغنية شائعة.

ولما صارت في الطريق رأت زمرة من زملائها الطلاب بادلتهم التحية، ثم انخرطت بينهم كواحد منهم، وراحت تسير خفيفة نشيطة والنسيم يداعب شعرها الكثيف المنسدل على كتفيها. بينما وقفت جدتها في الشرفة ترقبها من بعيد، والغيظ والغيرة يفوران في قلبها،

ويتقدان في عينيها . كانت تقارن وهي في وقفتها تلك بين حياتها التي عاشتها تحت عبء التقاليد والقيود ، وبين الحياة الحرة الطليقة التي تعيشها بنات هذا الجيل الجديد . فإذا هي تقول في نفسها :

أين نحن من بنات اليوم ؟! . وماذا رأينا من هذه الدنيا ؟!

الله لا يسامحك يا أبي ، ولا يسمح عنك . لقد دفنت صباي في خباي !! . وحرمتني كل شيء حتى لذة القراءة والكتابة التي كانت تتمتع بها الكثيرات من بنات جيلي .. لا أدري والله ماذا أجداك ذلك كله ؟ .

ثم تسحب كرسياً قريباً منها وتجلس عليه وتروح تفكر ... وكأن مرأى حفيدتها وصباها الدفاق قد أهاج فيها ذكريات بعيدة ، فراحت تمر في مخيلتها أيام صباها وشبابها .. أليست ذكريات الصبا والشباب كنسمات بليلة تمر على أرض موات فإذا هشيمها أخضر ، وأشواكها ورد وزنبق ؟ .

ولكن لم يكن لها من تلك النسمات البليلة سوى نسمة واحدة ! .. راحت ترف عليها وهي في جلستها تلك ، فإذا هي في الرابعة عشرة من عمرها ، ترتدي إزاراً أبيض فضفاضاً ، وعلى وجهها نقاب أسود كثيف جداً لا ترى طريقها من خلاله إلا بصعوبة ، تتعثر في حواري دمشق الضيقة وقد صحبتها أمها لتشتري لها حذاءً

جديداً . فلما صارتا في سوق الحميدية دخلتا دكاناً لبيع الأحذية ، ويستقبلهما بائع شاب ، يبدو عليه أنه ابن صاحب الدكان . أخذ يعرض بضاعته بلباقة ، ويعدد محاسنها . ويعجبها حذاء من اللماع الأسود .

وتجلس على كرسي لتجربه ، وينحني البائع أمامها ليساعدها على احتذائه ، بينما كانت أمها مشغولة بانتقاء آخر لنفسها . فإذا البائع الشاب يمرر يده على ساقها ، ثم يأخذ قدمها بين يديه ويضغطها قليلاً ، ثم يهمس بعذوبة قائلاً :

ـــ سبحانِ الخلاق ! ... أنا على ما رأيت في هذه الدكان لم أر أبداً مثل قدميك الصغيرتين الطريتين .

وتسري فيها رعشة من لمسته الجريئة ، وتضطرب وترتبك ، ثم تسحب رجليها من أمامه وترخي عليهما طرف إزارها . ويرفع رأسه ، وعلى فمه ابتسامة حلوة مغرية ويحدق فيها النظر . وأنى له أن يستشف شيئاً من وراء حجابها الأسود الكثيف ؟!

أما هي فقد رأته تماماً . وجه مستدير أسمر ، وحاجبان أسودان كثيفان ، وعيناه براقتان ، وكأن برقهما قد اخترق حجاب وجهها ، واستقر على عينيها فلم تملك أن غضت الطرف وتمتمت :

ـــ الله يخليه لأمه .

عندما خرجت من لدنه متأبطة حذاءها الجديد كان يشيعها بنظرات تكاد تلتهمها التهاماً ، وراحت هي تسير إلى جانب أمها مزهوة منتصبة القامة ، حتى ذلك الحين لم تدرك أبداً أن لها جمالاً يدعو إلى تسبيح الخلاَّق .

وما تكاد تبتعد قليلاً عن الدكان حتى يمر من أمامها شاب له سمات بائع الأحذية تماماً . فإذا يدها تمتد دون وعي منها ، فترفع طرف إزارها كأنها تخشى عليه أن يتسخ من أقذار الطريق ، فتبدو ساقاها البديعتا التكوين .

ولكن الشاب الغبي لم ير ما كشف له ! ... إنما رآه شيخ بغيض الشكل ، كبير الأنف ، جاحظ العينين ، صاح بها بصوت أجش ، يشبه صوت أبيها تماماً :

ـــ ارخي إزارك يا بنت . الله يقصف عمر البنات ، ويجعل المئة منهن واحدة .

وتشعر كأن دلواً ساخناً يصب عليها ، فترخي إزارها وتسير منكمشة خلف أمها حتى تصلا إلى البيت .

كان اليوم السابع والعشرين من شهر رجب الفضيل ، فلما

صار الوقت بين الصلاتين ، صلاة المغرب وصلاة العشاء ، قعد أبوها في صدر الليوان وتحلقت حوله الأسرة بأجمعها ، وراح يتلو عليهم سيرة المعراج بصوت خاشع . فلما وصل إلى قوله :

عندما صار النبي ﷺ في السماء الخامسة طلب رؤية جهنم ، فرأى فيها فيما رأى نساء معلقات من شعورهن فقال :

يا أخي يا جبريل ما خطب هؤلاء النساء المعلقات من شعورهن ؟؟ .

ويجيبه الملاك :

هؤلاء هن اللواتي كن يظهرن فتنتهن للرجال .

ويخيل إليها عندئذ أن أباها يصوب إليها نظرة فاحصة . فأخذ قلبها يضرب بقوة وعنف ، وتتذكر كيف داعبها البائع الشاب ، وكيف تصدت للفتى ، وكيف وبخها الشيخ ... وتتمثل في مخيلتها صورة النساء المعلقات من شعورهن ، فيمتلكها رعب شديد ، وتستغفر الله في سرها مرات عديدة . وتصلي العشاء ثم تأوي إلى فراشها باكراً وتناقش نفسها الحساب ... وتنتهي المناقشة إلى أنها لم تقصد الفتنة أبداً علم الله . فالبائع الشاب سبح الخلاَّق على بديع صنع الباري عندما رأى جمال ساقيها ... فهل من بأس يا ترى إذا سبح عباد الله الخلاَّق في عليائه مبدع السوق الرشيقة ، والأقدام الصغيرة اللينة ؟؟ .

وعلى أساس هذه الفلسفة التي بدت لها منطقية جداً، صارت تبيح لنفسها أن تحتال بشتى الطرق لتظهر فتنتها وجمالها كلما مرت بالسمر ذوي العيون البراقة، رغم إزارها الفضفاض ونقابها الأسود الكثيف.

ويمضي على ذلك أسبوعان، وإذا أمها تباغتها ذات صباح بسؤال:

ـــ مالي أراك هكذا ساهمة شاردة، تؤثرين الوحدة، لا تأكلين إلا قليلاً، ولا تنامين إلا لماماً؟.

فترتبك أمامها، وتختلق لها أعذاراً واهية لتصرفها عما يعتمل في نفسها. وتود في صميمها لو تستطيع أن تعترف لها بالواقع. ولكن عم تستطيع أن تحدثها؟.

أعن الشوق الظامئ إلى الوجه الأسمر والعينين البراقتين؟. أم عن الرغبة الملحة في اللمسة الجريئة، والهمسات العذبة؟.

كم تتمنى أن ترى متيمها بائع الأحذية مرة ثانية.. فقد برَّح بها الوجد حتى لم تعد تستطيع صبراً. فصورته الحلوة ماثلة في مخيلتها ليل نهار، وهمساته العذبة ما زالت تتردد في مسامعها دائماً أبداً، وربما لازمها طيفه بعض الليالي حتى الصباح.

ولكن ما من سبيل إلى رؤيته إلا إذا بلي الحذاء اللعين .. وتأخذ الحذاء وتعاينه جيداً فتجده متيناً جداً تقدر لبلائه حولاً كاملاً !.

حولاً كاملاً ؟؟ يا له من أمد بعيد ، إنها لن تصبر عليه أبداً .

وتفكر قليلاً ، فإذا أساريرها تتهلل ، ثم تقوم مسرعة وتعود إلى أمها هالعة وهي تقول :

ـــ أمي ! أخي الصغير أخذ فردة حذائي الجديد إلى الحديقة ورمى بها إلى الساقية فجرفتها المياه ... ويهطل دمعها مدراراً .. وتقوم الأم إلى صغيرها المتهم البريء الذي لا يحسن النطق تؤدبه وإلى الصبية الواهة تكفكف دمعها ، وتعدها بالذهاب غداً إلى البائع نفسه ، عساه يرضى أن يصنع لها فردة ثانية ، وإن لم يرض فستشتري لها حذاءً آخر .

عندما كانت في طريقها إليه كانت تدغدغها أمان حلوة ، وأحلام عذاب ، وتقول في نفسها :

ـــ في المرة الماضية سبَّح الخلاقَّ ، أما في هذه المرة فسأدعه يهلل ويكبر . ولكن لما دخلت الدكان أدركت لأول مرة في حياتها أنها سيئة الحظ !.. لأنه لم يكن هناك فقد ذهب لبعض شؤون عمله ، وحل أبوه محله .

وما من شك أبداً أنها سيئة الحظ، وإلى حد بعيد!!.

ففي مساء ذلك اليوم بالذات كان أبوها يتناول من الشيخ البغيض الشكل، الكبير الأنف، الجاحظ العينين صرة تحوي مئة ليرة ذهبية ــ أم حصان ــ هي صداق ابنته من ذلك الشيخ الذي كان قد أُخذ بجمالها عندما صادفها في الطريق، وبخها عندما رفعت طرف إزارها، ثم تبعها حتى عرف بيتها، وجاء في تلك الليلة المشؤومة خاطباً لها، راغباً فيها، فرحب به أبوها ووعده خيراً ولكنه أبى أن ينصرف قبل أن يدفع مهرها.

وكان ذلك اليوم آخر العهد بالحب والحبيب!!.

أخذت هذه الصوَر من الماضي تمر في مخيلة العجوز متتابعة متلاحقة، حتى إذا انتهت إلى هذه النتيجة الفاشلة اغرورقت عيناها بالدموع، وزفرت زفرة حرى على شبابها الضائع، وعلى حياتها الطويلة التي بدت لها تافهة لا طعم لها. ثم تجرض بريقها، وتهز رأسها هزات متتابعة وهي تنظر إلى بعيد نظرة تائهة كأنها تقرأ سفر حياتها الطويل.. ويلوح لها على الشرفة المقابلة شبح صبية فتانة القوام، وتمسح نظارتها وتعيدها إلى عينيها وتحملق جيداً ثم تقول:

ــ يا سلام! هذه جارتنا أم أنطون.. والله حسبتها صبية بنت

عشرين .. ولولا شالها البنفسجي ما عرفتها .. أم أنطون أكبر مني بكثير ، ومع ذلك لا يفوتها أبيض ، ولا أحمر ..

كل النساء كذلك إلا أنا !! ..

ومالي لا أجرب ولو مرة واحدة ؟؟ ..

وما تكاد هذه الفكرة تخطر لها ، حتى تسرع إلى غرفة حفيدتها وتظل تعالج الأدراج الصغيرة التي فيها أدوات الزينة حتى تفتحها ، ويبهرها ما ترى فيها من علب وقوارير مختلفة الأشكال والأحجام وأدوات من معدن لماع دقيقة الصنع ، لها مقابض من عاج ، وأصابع أنيقة من أحمر الشفاه ، فيها الفاتح ، والغامق ، والمائل إلى الصفرة ، والمائل إلى الزرقة ، وهذه الآلة التي لها مقبض كالمقص وفي رأسها نصف دائرة ، لقد رأت مرة حفيدتها تعالج بها أهدابها فقالت لها هازئة ساخرة :

ـــ أرجو أن تلتقطي بؤبؤ عينيك حتى تعمي في سبيل الزينة . هذه الآلة خطرة جداً لا سبيل إلى استعمالها أبداً . ولم يعجبها من كل ما رأت وعاينت سوى قارورة تحتوي سائلاً لزجاً أبيض قلبتها في يدها ثم قالت :

ـــ لا شك أنه المحلول الذي طلت به الماشطة وجهي ليلة عرسي .. إن

له لمفعولاً سحرياً ... وراحت تطلي به وجهها . ثم تتفرس في المرآة وتقول :

ـــ والله إني أحلى من أم أنطون بكثير .

ثم تتناول أيضاً قارورة صغيرة تحتوي سائلاً أحمر براقاً ، أُخذت ببريقه ، ولما فتحت القارورة صعدت إلى أنفها رائحة حادة ، ورغم ذلك أخذت منه قليلاً وطلت به خديها وشفتيها . فإذا صورة بشعة تطالعها بالمرآة ، أفزعتها بشاعتها فراحت تتراجع إلى الوراء خطوة خطوة ، وإذ هي تتعثر بتمثال من رخام ـــ وضعته حفيدتها قرب مرآتها ـــ فتقع على الأرض ويقع التمثال فوقها فيشج رأسها ويغمى عليها ! .

وفي صبيحة ذلك اليوم بالذات كانت حفيدتها الصبية ذات الثامنة عشرة تنفث دخان لفافتها الفاخرة في نادي الفروسية ، وتقول لأصدقاء لها وصديقات :

ـــ لا أدري والله ماذا حلَّ البارحة بجدتي المسكينة ؟! تركتها صباحاً على أحسن ما تكون ، وقرأت على رأسي وردها المعتاد . ولما عدت من الجامعة وجدتها قد دخلت غرفتي في غيابي ، على غير عادتها فكسرت لي تمثال (فينوس القرن العشرين) الذي نحته لي صديق مثّال على شكلي تماماً ، فكان واأسفي عليه تحفة فنية نادرة المثال .. ثم عبثت

بأدراجي فأفسدت ترتيبها ، ثم طلت وجهها بزيت الشعر فاستنفذت القارورة الثمينة كلها ، وطلت خديها بدهان الأظافر حتى أصبح من المتعذر إزالته عن وجهها المجعد ، وهي تهذي دائماً بشاب تصفه أنه أسمر ، وكثيف الحاجبين براق العينين ... وكلما رأتني تكشف لي عن ساقيها الهرمتين وتسألني جادة :

هل رأيت أجمل منهما ؟؟

ثم تردف قائلة أيضاً :

ألست أنا أجمل من جارتنا أم أنطون ؟!

ويقول خبيث من الرفاق :

ـــ من يدري لعل نسمة بليلة من ذكريات الصبا والشباب مرت البارحة على جدتك فأودت بعقلها !

وتعلو كركرة الصبايا وقهقهة الشباب .

# اللـــه كريـــم

كانت الساعة قد جاوزت الثالثة بعد منتصف الليل. وهو ما يزال يتقلب على فراشه، تنهشه همومه، وتتناوشه وساوسه وأوهامه. يستجر النوم بالعقاقير فلا يحصد منها إلا وهناً في أعصابه وضيقاً في صدره، وأنى له النوم وهو يتخيل هاتين العينين السوداوين اللتين تقدحان شرراً تلاحقانه كيفما التفت، إن أغمض عينيه أو فتحهما، في الظلمة أو النور، تحملقان به دائماً أبداً، تنظران إليه شزراً، وكأنهما تقولان له:

ـــ أنت وغد.. وغد خائن.. خائن، أنت موال لأعدائنا، أنت لست منا! أنت أشد نكراً علينا من هؤلاء المستعمرين الطغاة.

ويعض شفتيه حتي يكاد يدميهما. لم يسبق له أبداً أن وقعت عليه نظرات عينين تنطقان بكل ما يضطرم في أعماق صاحبهما من موجدة، وحقد، وكبرياء، كعيني هذا الثائر الشاب الذي سيق صباح هذا اليوم من سجن قلعة دمشق لينفذ به الفرنسيون حكم

الاعدام في المرجة .. في ساحة الشهداء ! كان هو يقف بحكم وظيفته كنائب مدير السجن إلى جانب الضابط الفرنسي المشرف على إدارة حبس القلعة ، يراقب معه السجناء ، ومهما نسي في حياته فلن ينسى تلك اللحظة التي مر فيها الشاب صاحب العينين السوداوين في طريقه إلى ساحة الإعدام ، بين صفين من الجنود شاكي السلاح ، لقد كان يسير وكأنه يراه الآن ، وفي كل لحظة ، شامخ الرأس ، بارز الصدر ، لا تختلج في وجهه عضلة ، يرشق الضابط الفرنسي قبل خروجه بنظرة كلها تحد وتعال ، ويوجه إليه وهو واقف إلى جانب الضابط تلك النظرة الشزراء التي حرمته لذيذ النوم هذه الليلة ، بعد أن أيقظت فيه أحاسيس كانت غافية ثم تنبهت كما تستيقظ الأفاعي عندما يسري فيها الدفء بعد شتاء قارس طويل .

إنه ليعجب كيف استطاع أن يكبح جماح نفسه في تلك اللحظة أمام الضابط الفرنسي ، وقد أخذت الرعشة تسري إلى جميع أجزاء جسمه فيشعر كأن حمى داهمته ، وكأن الدم يطفر مرة واحدة إلى رأسه حتى يكاد ينفر من عينيه وأنفه وأذنيه .

ورغم كل ذلك يظل متجمداً في مكانه متحاملاً على نفسه ، يسمع كلام الضابط الفرنسي ولكنه لا يعي معناه .

لقد جاوز الخامسة والعشرين ولا يذكر أبداً أن ليلة نكراء

مرت به كهذه الليلة، حتى ليلة مات أبوه وترك له إعالة هذه الأسرة الوفيرة العدد التي لا يدري كيف يتدبر شؤونها. لقد استطاع في تلك الليلة رغم همومه السود أن يغفو قليلاً. أما الآن فلا سبيل إلى النوم أو الراحة، والعينان السوداوان الحاقدتان تلاحقانه وتحدجانه بتلك النظرة الشزراء!

ماذا كان يقول في نفسه هذا المجاهد الشاب وهو يوجه إلى مواطنه نائب مدير السجن تلك النظرة الحاقدة القاسية!

ويثقل عليه هواء الغرفة، ويزيد في ثقله حر شهر آب اللافح فيهب من فراشه ويخرج من غرفة نومه إلى فسحة الدار يذرعها جيئة وذهاباً. عن يمينه غرفة ينام فيها إخوته الستة الصغار، وعن يساره غرفة تنام فيها أمه وأختاه الصبيتان، ويتناهى إلى سمعه غطيط بعضهم وهم في سباتهم العميق فيشعر نحوهم لأول مرة بشيء من الحنق والموجدة، إذ لولا هذا القطيع من الأحياء النائمين الذي أخذ على نفسه رعايته وإطعامه لمَا وقع في مأزقه هذا، ولمَا جفا النوم جفنيه ولمَا تعذب وشعر بالذل والصغار، بل كان التحق بالثورة منذ نشوبها شأن غيره من رفاقه أبناء هذا الوطن الأحرار، ولشفى غليله من هؤلاء الفرنسيين الطغاة. وإذا قدر له ووقع في قبضتهم لسار إلى

ساحة الشرف رافع الرأس ، متعالياً كمواطنه الشاب المقدام الذي رآه في هذا اليوم يساق إلى ساحة الإعدام .

ولكن من يطعم هؤلاء النيام الحالمين ؟ . أيشعرون يا ترى وهم في يقظتهم بما يقاسي هو في سبيلهم ؟!

ألا يمكن أن يجد حلاً لمشكلته هذه يريحه من تبكيت الضمير ؟ أيستطيع أن يصبر على هذه الحال فيرى كل يوم مئات المآسي تمثل بأبناء وطنه في سجن القلعة تحت سمعه وبصره فلا يحرك ساكناً ؟ بل يضطر أحياناً أن يرائي الموظفين الفرنسيين ! يا لهذا الواقع المر ما أفظعه وما أصعب احتماله !

كل هذا في سبيل هؤلاء الغارقين في سباتهم العميق من أفراد عائلته . لقد التحق أكثر رفاقه بالثورة منذ نشوبها ، ماذا يتقولون عنه يا ترى ؟ وبماذا يتهمونه هو الذي كان يتبجح بالوطنية ، ويقود المظاهرات فلا يفوته موقف واحد من مواقف الإقدام والشجاعة . .

لو أن أباه ظل حياً يرعى الأسرة التي خلفها ، لكان هو الآن أحد ثوار الغوطة الذين يتراؤون له من بعيد ، وكأنهم في جهادهم نماذج البطولة والتضحية التي أحبها وأولع بها .

ما أسخفه عندما قبل هذه الوظيفة التي سعى له بها أحد

أصدقاء أبيه بعد موته، هذه الوظيفة التي ملأته غروراً في بادئ الأمر، كان يشعر أنها كبيرة على فتى في مثل عمره، فهي وظيفة مرموقة وذات راتب لابأس به. كم كان يمتلكه الزهو عندما يدخل أو يخرج من باب القلعة فيقف له الجنود والحراس على طرفي الباب يحيونه كما يحيون ضباطهم، ولكن منذ نشبت الثورة أخذ يشعر بالذل والصغار فيغض طرفه خزياً كلما دخل القلعة، أو خرج منها. لا شك أن مواطنيه يعتبرونه واحداً من هؤلاء العملاء الموالين للأعداء المشرفين على السجن الرهيب الذي تمثل به كل يوم أفظع الجرائم وأبشعها. وتعتريه رجفة عندما يتذكر أنه سيقف بعد غد موقفاً آخر أشد هولاً من موقفه اليوم. فبعد غد سيخرج أيضاً من سجن القلعة أربعة، هم من أبرز رجال الثورة في طريقهم إلى ساحة الشهداء، حيث سينفذ بهم حكم الإعدام، فيتأرجحون على المشانق!

ولا بد له أن يقف إلى جانب الضابط الفرنسي يستهدف نظرات هؤلاء الأبطال بما فيها من لوم وتأنيب وحنق، هؤلاء الأبطال الذين دفعوا دماءهم رخيصة في سبيل الحرية.

إنه لن ينسى أبداً موقفهم اليوم عندما ودعوا أهلهم.. لقد كان أحدهم يطمئن أمه القروية العجوز وقد أخفى عنها خبر حكمه بالإعدام فراح يتجلد أمامها ما وسعه الجلد، لله ما أعظمه! كيف

استطاع أن يجر الابتسام إلى شفتيه ويتكلف الهدوء والاطمئنان، ويطلب منها أن تتذرع بالصبر، كان يردد أمامها بين كل جملة وأخرى:

الله كريم يا أمي.. الله كريم...

ثم يوصيها بزوجه وأولاده خيراً، حتى إذا انتهت الدقائق المعدودات لزيارة السجناء، وجاء سجانه ليعود به إلى زنزانته ارتفع نشيج العجوز وكأن قلبها قد حدثها بهول ما سيحمله إليها الغد الرهيب فأخذت تصرخ من أعماقها بصوت متهدج النبرات:

ـــ الله كريم يا بني... الله كريم.

وكأنها أصيبت بنوبة هستيرية، وراح الحراس يدفعونها بقسوة وفظاظة إلى خارج السجن... فتخرج منه ذليلة مهانة، مجروحة القلب.. وتتتالى أمثال هذه الصورة المؤلمة التي كان يشهدها كل يوم على مخيلته فيزيد ذلك في ضيق صدره، ويشعر كأن أنفاسه تكاد تنقطع، وكأن كابوساً جاثماً على صدره.

ويهدأ قليلاً عندما يرى أشعة الفجر وقد أخذت تبعث بأنوارها مع نسمات الصبح النديا، ويعود إلى غرفة نومه.

وبعد قليل تستيقظ أمه لتؤدي صلاة الصبح، ثم تتبعها الأسرة

ويبدأ الضجيج في البيت . لم يشأ أن يفضي إلى واحد منهم بما يلم به . كان يشعر بصداع أليم لا يستطيع معه أن يكلم أحداً ، أو أن يتناول شيئاً من طعامه ، وهو يعلم أن أمه وأختيه سيرهقنه بأسئلة لا قبل له بالرد عليها وهو في حالته تلك . فخير له إذن أن يرتدي ألبسته على عجل وأن ينسل من البيت دون أن يراه أحد ، وأن يذهب إلى عمله ، إلى قدره المحتوم ، إلى مقر عمله البغيض في إدارة السجن .

ويصل إلى السجن ، ويدخل غرفة عمله وهو يشعر بالقرف والاشمئزاز من نفسه ، من كل ما يحيط به . لقد كانت الغرفة خالية فلم يحن بعد ميعاد مجيء الموظفين . وأخذ يقلب الأوراق التي أمامه ، وفيما هو يفعل ذلك ساهماً إذ لمست يده ورقة جمد نظره على أسطرها القليلة فراح يعيد تلاوتها مرات ومرات !

كانت هذه الورقة تبيح تسريح أربعة من السجناء العاديين المحكومين بجنح يسيرة . ولمعت في ذهنه فكرة خاطفة جعلته يردد بصوت مسموع :

يا لها من سانحة مواتية ، .. فرصة نادرة .. أستطيع أن أعمل شيئاً يريحني مهما كان بعده من تضحية .. إن ما أفكر به الآن ممكن عمله والنجاح فيه إن استطعت أن أسيطر على أعصابي وأحكم تدبير الأمور فاليوم يوم جمعة ومدير السجن لا يأتي إلى عمله ، وسأنوب أنا عنه في كثير من الأمور ، كما أن كثيراً من الموظفين لا يداومون على

وظائفهم في مثل هذا اليوم .. فما أيسر عليَّ أن أخرج بموجب هذه الورقة الزعماء المحكومين بالإعدام بدلاً من السجناء الأربعة العاديين ، ثم أفر بهم إلى الغوطة معقل الثوار وليحدث بعد ذلك ما يحدث ! .

وشعر بشيء من برد العزاء يسري إلى نفسه بعد تلك الليلة المرهقة التي قاسى مضضها بالأمس ، وينقلب ما فيه من فتور وقلق ، واشمئزاز إلى حماسة ، وحزم ، وعزم ، وراح قلبه يبتهج فيزيد في إقدامه واندفاعه ، لقد نسي كل شيء ، نسي أسرته الكبيرة وما ينتظرها من أهوال بين يدي الفرنسيين بعد فراره ثم ما ينتظرها أيضاً من جوع وتشرد فليس هناك من يعول الأسرة غيره ، ثم ما ينتظره هو من هول إذا فشلت مغامرته الجريئة ولكنه كان يردد في أعماقه :

إما أن أنجح وأرضي نفسي وما يثور بها ، وإما أن أعدم مع هؤلاء المجاهدين الأربعة . أليس لهم أسر يعيلونها أيضاً ؟! . ويرضى ضميره ، وتطمئن نفسه ، فيعمد إلى عمله يؤديه كعادته تماماً ، ثابت الجنان هادىء السمات ، لا يبدو على وجهه أي انفعال . ولقد وطد العزم على المضي بهذه المغامرة الخطرة ولن يثنيه عن عزمه شيء .

كانت أول ورقة قدمها للضابط الفرنسي للتوقيع هي هذه الورقة التي تبيح إطلاق سراح السجناء الأربعة العاديين . ولما كان

وقت الظهيرة انصرف الضابط الفرنسي إلى داره ليغيب ثلاث ساعات كما هي عادته.

راح هو يفكر ليعد مغامرته الخطرة، لأنه يتحتم عليه أن ينجزها خلال هذه المدة القصيرة. كان عقله يعمل بنشاط غريب، وإقدام لا يعهده بنفسه أبداً. بدأ أولاً يحتال على صغار موظفي السجن فيشغلهم بأمور تافهة تبعدهم عن غرفة المحكومين بالإعدام، ثم يرسل الموظف الموكل إليه تدقيق أوراق المسرحين من السجناء بمهمة خارج السجن. وكان من تقاليد السجن أن يعزل المحكومين بالإعدام في غرفة خاصة تقفل بمفتاح غليظ يعلق على جدار الغرفة التي يشغلها هو ورئيسه الضابط الفرنسي، ويقف على بابها ديدبان يحرسها دائماً أبداً، فيتناول هو المفتاح من مكانه في غفلة من الديدبان ثم يضعه في جيبه ويسير بخطى ثابتة في الممر الطويل الذي يؤدي إلى الغرفة المعزولة، ثم يفتح الباب بتؤدة ويدخل الغرفة، ويغلق بابها وراءه، وينظر السجناء إليه غير مبالين به، ولكن سرعان ما تنقلب لامبالاتهم اهتماماً عندما يسر إليهم أن يتبعوه فقد هيأ لهم سبل الفرار، والوقت ضيق جداً، لا يستطيع أن يشرح لهم التفاصيل، كل ما يرجوه منهم هو أن يسيروا من خلفه سيراً طبيعياً لا يلفت النظر، حتى إذا حالفه التوفيق وخرج بهم من باب السجن وأوصلهم إلى الطريق كان عليهم أن يسيروا متفرقين ولكن باتجاه واحد

حتى يلحق بهم بعد هنيهة ثم يتولى أمرهم ، فهم غرباء عن دمشق لا يعرفون دروبها ومسالكها ، وما أيسر أن يقبض عليهم مرة ثانية . وتذهلهم المفاجأة فما ينطقون بكلمة واحدة بل يسيرون من خلفه كما أمرهم ، وكأنهم في غيبوبة .

فلما وصل إلى باب القلعة سأل الحراس عن الموظف الموكل إليه أمر تدقيق أوراق المسرحين ــ وكان قد أرسله في مهمة خارج السجن ــ فأجابوه أنه لم يعد بعد . فأخذ يبربر بكلام يفهم منه أنه ساخط عليه ، لأنه تأخر أكثر مما ينبغي ، وأصبح هو مضطراً أن يقوم بوظيفته أثناء غيابه .

ثم يدفع إليهم الورقة الممهورة بإمضاء الضابط الفرنسي والتي تبيح تسريح أربعة سجناء محكومين بجنح يسيرة . ثم يأمرهم أن يفتحوا الباب أمامهم . فلم يخامر الحراس أدنى شك في أمره .

ويفتحون باب السجن .. ويخرج الأربعة وهم أشد ما يكونون دهشة من هذه المفاجأة التي ما كانت لتطولها أحلامهم ، لا يكادون يصدقون أنهم حقاً قد أصبحوا في عرض الطريق أحراراً طلقاء ، وأنهم قد تخطوا سجنهم الرهيب ، وفروا من الموت بعد أن باتوا بين شدقيه .

ويعود إلى غرفته فيعلق المفتاح في مكانه . ثم يخرج مسرعاً ليلحق بهم .

كان مسيره معهم في الطريق مضحكاً محزناً ، مرة يسرع ومرة يتئد ، تارة يقترب منهم ليسر إليهم بكلمات خاطفة يرجوهم أن يملكوا أعصابهم فلا يبدو عليهم ما يلفت النظر إليهم ، ثم يبتعد عنهم خشية أن يراهم من يعرفهم أو يعرفه .

كان قد قرر فيما بينه وبين نفسه أن يذهب بهم إلى تاجر معروف ، له مخزن من خلفه مستودع قريب من سجن القلعة . وكان صاحبه هذا معروفاً بالوطنية ، والحماسة للثورة ، وطالما تشدق أمام الناس بما تتطلبه الوطنية من تضحية وبطولة ، ورأى أن يقص عليه القصة ، يرجوه أن يؤوي هؤلاء الرجال الأربعة في مستودعه مدة ساعة فقط ريثما يجد عربة يثق بسائقها ليدبر معه أمر فرارهم جميعاً إلى رحاب الغوطة .

ويزوي الرجل ما بين عينيه وتربد سحنته فيصبح وجهه جامداً كوجه مراب عتيق . ويقول له بفظاظة :

ـــ أبعد عن دكاني أنت ومن معك ! . إن ما تطلبه مني شيء مخيف ، وراءه مشنقة وخراب بيت . وأنا لست مستعداً لكل ذلك ! .

ولأول مرة يعرف نائب مدير السجن كيف تميد الأرض تحت القدمين .. وكيف ينخلع القلب . وكيف يتشدق المارقون بالوطنية .

تمنى لو أن معه سكيناً ليغمدها في صدر هذا الدعي . ولكن لا سبيل الآن حتى إلى توجيه كلمة لوم إليه .. ويكظم غيظه ثم ينصرف من أمامه وهو يهز رأسه ويقول في نفسه :

سيكون لي شأن مع هذا الخائن في يوم من الأيام .

ويتبعه الرجال واجمين مطرقين ، وقد شعروا بحراجة الموقف ، ويتملكهم الرعب كما لم يتملكهم أبداً . ويفكر هو في الأمر وقلبه واجف مضطرب ، ويسائل نفسه إلى أين يذهب بهؤلاء الفارين المحكومين بالإعدام الذي يسيرون خلفه متمهلين على غير هدى ، كأنهم مسلوبو الإرادة .. وعرضت له فكرة لعل حراجة الموقف هي التي هدته إليها :

لمَ لا يذهب بهم إلى الجامع الأموي ؟ إن بيوت الله لا تضيق بأحد من الناس .. سيدعهم هناك ريثما يدبر عربة يثق بسائقها .

ويتجه نحو الجامع وهم من ورائه ، ويشير إليهم أن ينتظروه في مشهد الحسين ريثما يعود إليهم بعد قليل .

وينطلق مسرعاً إلى ساحة المرجة حيث تقف عربات الأجرة . كان يضرع إلى الله أن يجد الأسطى عبد الفتاح في مكانه المعهود ، فقد اعتاد أن يستأجر عربة هذا الحوذي العجوز كلما احتاج إلى عربة شفقة عليه ، حتى نشبت بينهما مودة وصداقة ، إنه يعرفه تمام

المعرفة، رجل طيب صادق، واحد من أبناء هذا الشعب البسطاء الحاقدين على المستعمرين. وكأنه أصبح على مثل اليقين بأن الرجل لن يرفض طلبه، ولن يكون كذلك التاجر الوغد الذي يتاجر بالوطنية فيما يتاجر به من سلع. ولكن المصيبة الكبرى هي ألا يجد الأسطى عبد الفتاح في مكانه الذي اعتاد أن يقف فيه. كيف سيأمن غيره على هذه المهمة الخطرة؟ ويسرع الخطى ويبدو له سوق الحميدية طويلاً لا آخر له، وحين يشرف على ساحة الشهداء يلوح له صف العربات المتحلق حول النصب التذكاري القائم في وسط الساحة فيتفحصها من بعيد، وتنبسط أساريره حين يلمح العربة المهترئة وقد جثم على كرسي القيادة فيها صاحبه العجوز، كومة بؤس سوداء، محني القامة، قد انغرز رأسه بين كتفيه، ينتظر رزقه بملالة وسأم. ويقفز إلى العربة ويستوي على مقعدها الخلفي، ويلتفت إليه الحوذي مرحباً به، فيقول له باقتضاب: خذني إلى مكان خال، أريد أن أتحدث إليك بكلمتين هامتين. ويجيب السائق دهشاً:

ـــ تريد أن تتحدث إلّي؟؟ أمرك يا بيك.

ويلسع بسوطه ظهري الجوادين ويوجههما نحو طريق دمر وبعد قليل يوقف العربة تحت صفصافة كثيفة الأغصان، ثم يلتفت إلى الراكب فيها فيشير إليه هذا بأن يأتي إلى جانبه، ويمتثل السائق لأمر

زبونه والدهشة تملؤه، لأنه لا يجد تفسيراً لما يطلب منه، ما عساه يريد أن يفعل يا ترى؟

ولما جلس إلى جانبه قال له بصوت خافت وعلى وجهه علائم الجد:

ـــ هل علمت يا أسطى عبد الفتاح أن الفرنسيين قد حكموا بالإعدام على مصطفى الخليلي من زعماء الثورة في حوران، وعلي فندي أبي ياغي من ثوار جبل الدروز، وعلى علي بصلة، وأحمد المحمود من زعماء الثورة في قرية داريا؟!.

ويجيب السائق العجوز والدهشة لا تفارقه:

ـــ ومن لا يعلم بذلك؟.. البلد كلها مضطربة من أجلهم!.

ـــ غداً سينفذ بهم حكم الإعدام في ساحة الشهداء!.

ـــ يعملوها الكلاب!.. الله يخرب بيتهم.. ثم يرفع يديه إلى السماء ويقول: الله يهد جبرك يا فرنسا!.

ويقبض نائب مدير السجن على يد الحوذي العجوز ويحدق إلى عينيه ثم يقول له: انتبه لكلامي.

لقد استطعت بحكم وظيفتي في السجن أن أخرجهم منه قبل ساعة وهم الآن في الجامع الأموي، ونريد عربة تنقلنا إلى الغوطة قبل

مضي ساعة وإلا انكشفنا ، .. وأنت تعرف ما سيؤول إليه أمرنا . فهل أنت على استعداد لمساعدتنا ؟

ــ الله يخليك يا بيك .. وهذه تحتاج إلى سؤال وجواب ؟؟ من عيني الاثنتين ، هيا فالوقت ضيق .

سأدفع لك قدر ما تريد .

ــ أخ ... طعنتني ! .. الله يسامحك ... أتريدني أن آخذ أجرة على واجب أتحرق دائماً على أدائه ؟ ... أنا والله العظيم أتمنى دائماً أن أجد فرصة أخدم بها أمتي وبلادي وقد جاءت الآن على رجليها فأنا أسعد الناس ، والله لو فيَّ قوة وشباب لالتحقت بالثورة من زمان ، ولتركت العيال على الله ، رب العيال يدبر العيال ، ولكن العين بصيرة ، واليد قصيرة ! ماذا يفعل الثوار بعجوز مثلي ؟ . البركة فيكم يا شباب ..

ــ هيا .. أي طريق تريدني أن أسلك ؟ . دمشق كما تعلم أصبحت معزولة عن الغوطة . في كل طريق استحكام وعسكر ، حتى حي المهاجرين أصبح معزولاً أيضاً .

لا عليك أنت ، أنا سأدبر الأمر . سر بنا أولاً إلى الجامع الأموي لتأتي بهم .

ــ أنا تحت أمرك . ويقوم الأسطى عبد الفتاح ويجلس أمام مقود العربة

وتبدو قامته منتصبة متحدية كأنه يقود معركة ثم يشرِّع سوطه ويلوح به في الهواء ثم يهوي به على ظهري الجوادين صارخاً من أعماقه: ـــ يا ستار، يا كريم.

وتسرع العربة نحو الجامع الأموي، وما هي إلا دقائق قليلة كان الثوار الأربعة قد انحشروا في العربة مع منقذهم نائب مدير السجن، وكان هذا وحده يدرك أنه ما يزال أمامهم عقبة كبرى إذا استطاعوا أن يتخطوها فقد كتب لهم النجاح.

كانت آمن الطرق حينئذ إلى الغوطة هي طريق حي الأكراد، ولا بد لمن يسلكها أن يمر أولاً بمخفر الجسر الأبيض القائم على سفح قاسيون، وكان هذا المخفر إذ ذاك هو الحد القائم بين مدينة دمشق، ومنطقة الثورة قد حول إلى استحكام أشبه ما يكون بحصن مسلح أقيمت فيه المتاريس، ونصبت على أطرافه المدافع الرشاشة، ووقف على منافذ الطريقين اللذين يتصلان به حرس فرنسيون، وسنغال مسلحون يفتشون المارة ويطالبونهم إذا ـــ اشتبهوا بهم ـــ أن يبرزوا أوراقهم التي تثبت شخصياتهم. وكان نائب مدير السجن يمر كل يوم بهذا المخفر، عندما يغادر داره القائمة في أقصى الجسر ذاهباً إلى عمله في كل صباح، أو عندما يعود إليها في كل عشية حتى عرفه الحراس وعرفوا أنه من موظفي الحكومة وقامت بينه وبينهم مودة،

وألفة . فكان يتحدث إليهم بالفرنسية ويبادلهم التحية كلما مر بهم .

ورأوه هذه المرة يجتاز الطريق في عربة ومعه رجال قال لهم أنهم مدعوون عنده ، فلم يترددوا في أن يفسحوا الطريق له ولضيوفه شأنهم معه في كل مرة .

وتمر العربة بسلام ، وتبدأ أعصاب راكبيها تسترخي قليلاً قليلاً بعد أن كانت كأوتار مشدودة .

ولما اجتازت منطقة الخطر الأخيرة كان بطل قصتنا نائب مدير السجن السيد زكريا الداغستاني يمط رقبته ليلقي بنظرة أخيرة على داره القائمة على الحد الأقصى من الجسر ، من يدري ربما لا يعود إليها ، ولا ينعم بدفئها أبداً ، قد يدفن في أرض الغوطة مع من يدفن كل يوم من المجاهدين .

وتجول في عينيه دمعتان عندما يتصور أمه الطيبة ، وأختيه اليافعتين ، وأخوته الصغار وهم ينتظرون أوبته هذه الليلة دون جدوى ، ثم كيف سيقتحم عليهم الفرنسيون دارهم ليسألوهم عن رب أسرتهم أين ولّى ؟؟.. وكيف سيتحملون العذاب والإهانة ، والجوع والتشرد ؟! . ترى هل ستغفر له أمه فعلته هذه ؟؟

ولم يشعر أنه أحبهم كما يحبهم في تلك اللحظة ، لقد عرف

ساعتها كيف يذوب القلب لوعة وحناناً. وتنحدر الدمعتان الساخنتان على وجنتيه فيمسحهما بيده، ثم يجد نفسه مدفوعاً بغير إرادته لأن يردد بصوت عال ما سمعه البارحة في السجن من تلك القروية العجوز وهي تودع ابنها الماثل أمامه الآن فتقول له وتردد ملء صوتها:

الله كريم... الله كريم.

ويردد الرجال الأربعة معه دون وعي منهم:

الله كريم... الله كريم.

وتتلاشى الأصوات بين جلجلة العربة، وصوت حوافر الخيل وهي تنهب الأرض في طريقها إلى فراديس الغوطة وجناتها، حيث كان التراب يجبل كل يوم بالدم الذكي.

# خيـــط العنكبـــوت

رهجة أحلى بنات ضيعتنا
حمرة خديها لا ترى على التفاح
لون عينها كخضرة الربيع في حقولنا
شفتاها حبتا كرز على غصن ريان
ضفائرها سنابل قمح ناضجة في موسم خير

هكذا كان شباب القرية يفتنون بوصف رهجة كلما كان ابن عمها حمدان غائباً عنهم. وما أكثر ما كان يغيب حمدان ساعياً وراء رزقه الضيق في القرى المجاورة أو في المدينة.

وذات أصيل كان الشباب مجتمعين حول العين يتفرجون على بنات الضيعة وهن يملأن جرارهن ــ على جري العادة في القرى ــ إذ تقبل رهجة تحمل جرتها على كتفها وتتهادى في دلال، فتستأثر وحدها بنظرات الشباب اللاهبة وتتيه على لداتها، فتشتعل الغيرة في قلوبهن جميعاً.

لم تكن ــ وهي التي لم تتعد السادسة عشرة بعد ــ قد أعطت قلبها لواحد منهم. كان يحلو لها أن تخص كل واحد منهم بابتسامة أو نظرة لتوهمه أنه وحده المفضل لديها. فينتهز الفرصة ليداعبها بكلمة غزل، أو بإشارة ذات معنى لا يدرك معناها غيرها.

وإذ حمدان يظهر فجأة على غير انتظار منهم، فيكفون عن النظر إلى رهجة، وعن التحدث عنها فيما بينهم، فليس التورط مع حمدان بالأمر السهل.

وكان حمدان يبدو يومئذ متجهم الوجه، مشغول البال، وكأنه يحبس كلاماً في فمه، ويتحين فرصة مواتية ليجهر به. فلما انصرفت آخر بنت عن العين، وهمَّ الشباب بالرواح، صرخ فيهم حمدان بلهجة لا تخلو من التهديد والوعيد:

ــ اسمعوا يا شباب.

ــ ويتئد الشباب قليلًا، ويسأل بعضهم بعضاً:

وماذا يريد حمدان منا؟

وإذا هو يتوسطهم، وبيده خيزرانة ثخينة يلوح بها عابثاً ويقول:

ــ أنا غداً مطلوب إلى العسكرية... وسأغيب عن الضيعة سنتين كما تعلمون، فو الله العظيم كل من سولت له نفسه أن يغازل بنت

عمي رهجة أو يحاول أن يؤثّر على عقل عمي الشيخ ليخطبها منه، فليحمل كفنه تحت إبطه من اليوم.

رهجة بنت عمي.. أنا أحق الناس بها، ولي حق أن أخطفها من جلوة عرسها فليعرف كل واحد منكم حده.

ثم يحملق بهم واحداً واحداً بنظرات متحدية، جعلتهم ينكمشون على أنفسهم ولا يحيرون جواباً.

إلا أحمد سمور الذي انبرى من بينهم وقال:

ــ هذا شيء معروف يا حمدان، طمن بالك.. ولو!. هل ماتت النخوة فينا؟

وينصرف الشباب مقهورين. ولكن من يستطيع أن يعترض؟ والضيعة كلها تعرف أن حمدان إذا قال فعل. وعدا ذلك فقد نطق الرجل بالحق، فالعرف والتقاليد الموروثة تعطي ابن العم حقاً في الزواج من بنت عمه، وما كان لأبي رهجة الشيخ علي إمام الجامع، وهو الحريص على تلك التقاليد والبقاء عليها أن يخل بها، أو يكسف ابن أخيه أمام الناس، ولو كان في صميمه غير راض عن هذه الخطبة لأن ابن أخيه حمدان فقير، لا يعتمد في أمور معاشه إلا على ساعديه القويين.

أما أحمد سمور الذي انبرى وحده من بين الشباب جميعهم، وطمأن حمدان على بنت عمه في أثناء غيابه في الجندية، كان أكثر الشباب افتتاناً برهجة والتياعاً عليها. لقد كان أقرب جار إلى بيتها، لا يغمض عينيه كل يوم إلا على خيالها، ولا يفتحهما إلا عندما يسمع صوتها المرح وهي تنادي دجاجاتها وتنثر لها الحب، فكان يقفز إلى السطيحة التي تشرف على بيت رهجة، ويبادلها تحية الصباح قبل أي إنسان، ويملأ عينيه من جمالها.

عشقها حين كان فتى يافعاً، وهي طفلة صغيرة ما تفقه شيئاً، فكان يلاعبها في البيدر، ويقطف لها الثمرة الشهية ولو كانت في أعلى الشجرة، يحملها على كتفيه كل مساء عندما يعودون من الحقل إلى البيت، يغني لها العتابا والميجانا. ولما كبرت قليلاً صار لا يرقص الدبكة في الأفراح والأعياد إلا معها... وكان يقعد لصقها في أمسيات الشتاء عندما يسمر أهلهما حول الموقد.

ولكن أباها صرفه عنها ذات يوم بالحسنى حين قال له:

ــ أصبحت يا بني شاباً، ولا يجوز لك أن تلعب مع البنات أو تدخل بيوت الناس دون استئذانهم.

ولما حاول بعد ذلك أن يكلمها في غفلة عن أبيها أشاحت وجهها عنه، فأدرك أن أباها، وهو المعروف بتزمته وصرامته، قد حرَّم

عليها التحدث معه كما كان شأنهما دائماً. ولما كانت تخشى أباها، وترهبه كثيراً كان لا بد لها أن تتصرف معه كما تصرفت الآن.

ويكتم أحمد سمور حبه في قلبه ويوهم نفسه بأن رهجة تحبه هو وحده، دون غيره من شباب الضيعة، لأنه أليف طفولتها ورفيق صباها، وأقرب الجيران إليها، وإن أشاحت اليوم عنه فلأنها لا تزال صغيرة ما تفقه في الحب شيئاً، فمتى كبرت واشتعلت جذوة الحب في قلبها، فلا بد لها أن تتحين الفرص لمبادلته ذلك الحب مهما كان أبوها حازماً في مراقبتها.

ويسرف أحمد سمور في أحلامه فيخادع نفسه ويطمئنها، ويمنيها بالأمنيات الحلوة.

ولكن الذي لم يكن بالحسبان أبداً هو ابن عمها حمدان هذا الذي كان يغيب عن القرية ساعياً وراء رزقه شهوراً تلو شهور، وإذا عاد إليها لا يمكث فيها إلا يوماً أو بعض يوم ثم يعود إلى غيابه حتى كاد ينساه أهل القرية... فلما أينعت رهجة كثمرة شهية جاء يقطفها ويحرمه منها.

ولكن أحمد سمور لم ييأس... ومتى كان اليأس يدخل قلوب العشاق؟؟ لا بد لهم دائماً أن يتعلقوا بخيط أمل، ولو كان أوهى من

خيط العنكبوت، وهكذا فعل أحمد سمور، كان يردد في نفسه ويقول:

من يدري ماذا يحدث في سنتين؟؟

بعض الناس قد لا يعودون من الجندية أبداً.

وتمر الأيام تليها الشهور وخيط العنكبوت يتأرجح في قلب أحمد سمور فيبدل خيبته أملاً، ويأسه رجاءً.

ويصبح الشيخ علي أحرص ما يكون على مراقبة فتاته، فلا يدعها تغيب عنه طرفة عين، حتى حرَّم عليها الذهاب إلى العين كل أصيل لتملأ الجرة كغيرها من بنات الضيعة كي يبعدها عن عيون الشباب والذهاب إلى العين هو السبيل الوحيد للتسلية والترفيه عند بنات القرى.

ويظن أهل القرية أن الشيخ ما فعل ذلك إلا حفاظاً على عهد ابن أخيه حمدان.

لكن بعض الخبثاء منهم كانوا يلاحظون أن الشيخ يكثر من الذهاب إلى دمشق في صحبة ابنته فيغيبان فيها بضعة أيام ثم يعودان وفي كل مرة كانت رهجة تحمل معها شيئاً جديداً، ثوباً من مخمل ثمين، أو حذاءً لماعاً، أو سواراً ذهبياً مما هو فوق طاقة الشيخ.. ويتسرب الشك إلى نفوسهم فيقدرون أن هناك أمراً يدبر في بيت

الشيخ ، يحوطه أهل البيت بالكتمان الشديد ، وكم حاولوا أن يستجروا الكلام من فم زوجة الشيخ ولكنها كانت رغم غباوتها المعروفة بها أدهى من أن تورَّط .

ويصبحون ذات يوم على خبر تقوم له الضيعة ولا تقعد أبداً ..

إن الشيخ علي إمام الجامع سيهجر الضيعة غداً إلى غير رجعة ..فقد غدر الشيخ بابن أخيه حين رضي أن يخطِّب ابنته من أحد تجار دمشق الأثرياء وسيسكن معها في دمشق عندما يزوجها منه .

وجن شباب القرية غيظاً .. لقد رضوا أن يتزوجها ابن عمها حمدان لأن العرف والتقاليد يفرضان ذلك ، أما أن يأتي غريب عن القرية فينتشلها من بينهم ويحرمهم من رؤيتها طول العمر فهذا ما لا يرضون به أبداً .

وكان أحمد سمور أشد الشباب غيظاً وحنقاً وموجدة ... جمع الشباب حوله وقال لهم :

ـــ إذا غاب عنا حمدان هل يجوز أن نسكت عن حقه يا شباب ؟؟ هل ماتت النخوة فينا ؟؟ .

ويسأله سائل منهم :

ـــ وماذا تريدنا أن نفعل؟ أليس الشيخ حراً؟ يزوج ابنته بمن يشاء ومتى يشاء؟

ويرد عليه بنزق:

ـــ لا يا أخي ليس هو حراً أبداً... هذه عاداتنا مشى عليها آباؤنا وأجدادنا ونحن لن نحيد عنها شعرة... سنخطف رهجة.

ـــ نخطف رهجة؟؟ نخطف رهجة؟ ردد الشبـــاب دهشين مستغربين!!.

ويقول أحمد سمور بتحد:

ـــ نعم نخطفها... وماذا يحدث إذا خطفناها؟ وماذا يستطيع أن يفعل أبوها الهرم الغدار؟.. سنخطفها ونضعها في بيت ما فيه رجال، عند العجوز أم ديب مثلاً، ثم نحرس البيت كلنا ولا ندعها تبرحه أبداً حتى نرسل إلى حمدان من يخبره وهو يعرف كيف يدبر أمره مع عمه.

ويتفكرون قليلاً، ثم يستجيبون لرأيه مرة واحدة دون أخذ أو رد. لقد صادف رأيه هوى في نفوسهم جميعاً جعلهم يركضون نحو بيت الشيخ، وفي أعماق كل واحد منهم حافز يحفزه على الركض، لا

يدري ما هو ولكنه يوهم نفسه ويقنعها أنه نصرة الحق على الباطل، والنخوة التي لا تموت أبداً، كما يقول أحمد سمور.

ويقتحمون دار الشيخ على أهلها، فإذا رأوا الشيخ راحوا يعنفونه، ويؤنبونه على غدره بابن أخيه ونقضه عهده.

أما أحمد سمور فما ينطق بكلمة واحدة، كان همه الوحيد هو أن يخطف رهجة.

وينقضّ عليها كما ينقض نسر على فريسته، ثم يحملها على ساعديه القويين كما كان يحملها في الحقل وهي طفلة صغيرة. وكانت رهجة أضعف من أن تقاوم قوته المسعورة بعد أن أذهلتها المفاجأة فاستسلمت إليه دون أي مقاومة.

ويخرج أحمد سمور من بيت الشيخ وهو يعدو بحمله الثمين ويضم الحبيبة إلى صدره فما ترتوي نفسه اللهفانة، أما فمه فكان يكيل لها السباب:

ـــ يا غادرة!.. يا خائنة!.. غرك المال خنت عهود الحب والوفاء!.. أما نحن فما ماتت النخوة فينا.

ويشدها إلى صدره حتى يكاد يكسر أضلاعها وهو يردد:

فهمت؟؟.. ما ماتت النخوة فينا.. سنحبسك حتى يعود حمدان ويعرف شغله معك.

وفي أعماقه كان يتأرجح خيط العنكبوت:

«بعض الناس قد لا يعودون من الجندية أبداً».

# مـاتـــت قـريــرة العـــين

كانت دارة أنيقة تلك التي يسكنها المسيو (غولميه) وزوجه، تحتضنها أشجار يانعة الخضرة، متمردة الأغصان، وتنبسط أمامها حديقة واسعة الأطراف بعيدة المدى وكأنها مزرعة كبيرة تمتد حتى الشاطئ العاجي الذي تنتهي عنده المدينة البيضاء، مدينة الجزائر.

وكان في أقصى هذه الحديقة الواسعة كوخ رث المنظر ضيق الأطراف يسكنه الناطور (عبد الجبار) وزوجه الصبية (زينب).

كان الليل يبدو وحشي الظلمة في جوانب الحديقة الواسعة، يزيد في وحشته صدى همهمة الأشجار الضخمة عندما يختلط بهدير الأمواج على الشاطئ القريب.

وكانت الأنوار التي تشع من الدارة الأنيقة ترسم حولها هالة لا تلبث أن تتلاشى قبل أن تصل إلى الكوخ الكئيب المرتمي في العتمة.

وكان ساكن الكوخ يقعد في تلك الليلة صامتاً حزيناً ينفث باستمرار دخان تبغه الرخيص كأنه يحاول أن ينفث همومه عن صدره، ولكنها لا تلبث أن تعود وتتراكم فوق رأسه، سحابة سوداء تهبط عليه ببطء حتى تكاد تخنق أنفاسه.

كان الضوء الهزيل المنبعث من قنديل الزيت المعلق على الجدار يلقي على وجه (عبد الجبار) ظلاً باهتاً فتبدو سحنته مربدة، رمادية اللون، كثيرة التجاعيد، كقطعة طين شققها الجفاف. أما عيناه الكليلتان فكانتا متجهتين إلى زاوية الغرفة ترقبان بكثير من الهلع زوجه (زينب) التي تكومت على نفسها حتى بدت له كصرة ثياب عتيقة ممزقة، وأخفت وجهها في وسادة وراحت تبكي بلا انقطاع. كان صوتها يعلو أحياناً حتى يصبح عويلاً ثم يعود فيخفت حتى يصبح نشيجاً مراً تقطعه حسرات وزفرات. كان (عبد الجبار) ينظر إليها بأسى وهو يتحرى عن كلمة يواسيها بها، أو على الأقل يشعرها بمشاركته لها في حزنها، ولكن شيئاً ما كان يلجم لسانه. كان ينتابه منها في تلك الليلة خوف شديد لم يشعر به تجاه أي إنسان مدى حياته وقد تجاوز الستين من العمر، كاد يمضي الليل وزينب لم يشح دمعها.

قال لها أخيراً بصوت خفيض مرتجف حاول جهده أن يكون رفيقاً رحيماً :

ــ ارحمي نفسك يا زينب ، كفاك بكاءً ! .. إنّا لله وإنّا إليه راجعون . هذه إرادة الله . لقد قتل أبوك في الجهاد ، وأخوك الكبير ، وابن عمك . وكثيرون غيرهم من أبناء هذا البلد فلم أرك تبكين كما تبكين اليوم على أخيك أحمد .

وتكف المرأة عن البكاء وهي تصغي إليه ، وقسماتها تضطرب ، وعيناها تقدح شرراً ، وكأنها تتحفز للكلام بعد كل جملة كان ينطقها ثم تقاطعه بصوت مبحوح جاف :

ــ ولكن أحمد مات في السجن ! ! أتدري يا من تعمل عند الفرنسيين ما معنى مات في السجن ؟ يعني مات من التعذيب والتشنيع . ثلاث سنوات كاملات وهذا الصغير يقاوم قساوة هؤلاء الجناة دون أن يلين لهم .

ترى أي ميتة اختاروها لك يا أخي يا حبيبي ؟ !

أمت تحت ضرب السياط ولذع النار ؟ أم مت معلقاً من قدميك بعد أن نزعوا أظافرك ، وسملوا عينيك ؟

وتتقدم من عبد الجبار ثم تهزه بعنف وهي تقول له :

ـــ أتحسب أنني كنت أرضى أن أبقى هنا إلى جانبك أعمل في هذه الحديقة وما يليها من حقول أخدم الفرنسيين لو لم يعدني (غوليه) بأنه سيسعى ليخرج أخي من السجن. سيدك (غوليه)، هذا الرجل اللئيم الوضيع الخدّاع، الذي تسميه أنت بالرجل الطيب، وتصدق أنه يعطف على قضيتنا، قضية الجزائر. كان الخنزير يقول لي كلما رآني:

بعد أسبوع فقط سيخرج أخوك من السجن..

ومضت ثلاث سنوات، يعلم الله كم عذبني الانتظار، كنت أتعلق بخيط واه من الأمل، أوهى من خيط العنكبوت، وأخشى دائماً أن ينقطع، فأسعى لإرضاء (غوليه) وزوجه العاتية. ولكنه لم يف بما وعد. ويقيني أنه لم يفعل من أجل أخي شيئاً، وكان باستطاعته أن يفعل كل شيء. كان اللئيم يضحك عليّ! رحمة الله عليك يا أبي! كنت أعرف بهؤلاء الفرنسيين الخائنين منا جميعاً. كان يقول لي دائماً:

تعالي معنا، دعي أحمد لرحمة الله، مثله كثيرون في السجون. إن كان له عمر سيخرج من السجن عندما يخرج الفرنسيون من الجزائر. لا تصدقي الفرنسيين أبداً، ولا تهدري كرامتك.

لم أطاوعه، رضيت بالذل والعار، رضيت أن أبقى هنا من

أجل أن أنقذ أحمد .. يا لحقارتي .. لن يغفر لي أحمد فعلتي هذه أبداً .

أما الآن وقد مات أحمد فأنا حرة طليقة من كل ما قيدت به نفسي سأحارب مع من يحاربون ، فإما ننتصر ، وإما نموت كرماء كما مات غيرنا . أشعر أنني أستطيع أن أفعل كل شيء مهما يكن صعباً . ولكني لم أعد أستطيع أن أرى فرنسياً واحداً يدب على أرض الجزائر .

كفاني كبتاً ، وحصراً وتمويهاً وخداعاً ، يا إلهي ! كيف استطعت أن أصبر إلى الآن ؟ .

إبق أنت هنا إن شئت ، اخدم سيدك الرجل الطيب — كما تسميه — لقد خدمته عشرين سنة ! . وكان من جراء ذلك أن وقعت مرة من أعلى شجرة أرغمك هو على الصعود إلى قمتها لتشذب أغصانها ، فوقعت وتهشمت يدك ، وقطعت ، وأصبحت عاجزاً لا تصلح إلا ناطوراً ككلب عجوز ! . وماذ جنينا بعد هذا كله ؟ غير هذه الأسمال البالية التي تغطيني وتغطيك ؟

وهذا الكوخ الحقير الذي نأوي إليه ، ومتى شاؤوا طردونا منه ! إن كوخ الكلاب خير منه ، وزريبة الدواب أصلح من سكننا ! . ورغم كل ذلك ما زلت تصدق أن غوليه يعطف على

قضية الجزائر ! وما زلت تسميه بالرجل الطيب ؟ وتقول عنه إنه غير راضٍ عن تصرف حكومته ، وأبناء قومه . ما أغباك ! إذا كان ما تقوله صحيحاً ، فلماذا ما برح كل يوم يتدرب وزوجه على إطلاق النار ، وإصابة الهدف ؟ أليس من أجل قتالنا ؟ قم معي الآن وانظر من الكوة الصغيرة التي تطل على القبو لأريك كيف كدست فيه صناديق الذخائر والمتفجرات ، كانوا يأتون بها في غفلة منا ، وقد رأيتهم مرة يمدون بها أبناء جنسهم . ستقول لي كما قلت مراراً : إنك رجل عاجز لا تصلح لحمل السلاح ، وإذا التحقت بالثورة . ستكون عالة على الآخرين . أما أنا فلست مثلك ، إني قوية أستطيع أن أتحمل كل شيء..

وتنحني على الأرض وترفع صرة صغيرة تلقيها على كتفها كانت قد جمعت فيها كل أشيائها . وتفتح الباب وتسير مهرولة نحو الطريق دون أن تلتفت إليه .

ويظل هو في مكانه مسمراً لا يتحرك وقد غاص رأسه بين كتفيه وبدا عليه انكسار حزين ذليل .

كان الذهول قد تملكه عندما رأى امرأته التي عهدها مستكينة ضعيفة ، تنقلب مرة واحدة إلى ثائرة قوية لا يخيفها شيء ، توجه إليه الإهانة تلو الإهانة فلا يستطيع أن يرفع رأسه أمامها ، أو

يوجه إليها كلمة اعتذار واحدة. وراحت هي تعدو في الحديقة.

كانت نسمات الصباح الندية تداعب وجهها، فيغمرها شعور لذيذ غريب لا عهد لها به. هو شعور الحرية والانطلاق.

راحت تشعر بذلك هانئة سعيدة رغم ما بها من حزن وألم. كأن السنين الطويلة المليئة بالكبت والذل قد أزيحت في هذه اللحظة عن كاهليها، فشعرت بكيانها، واهتدت إلى نفسها الضائعة، إنها الآن إنسان كامل، يستطيع أن يتصرف حسب مشيئته، ويستطيع أن يقرر مصيره. لقد تحررت، حتى من عبد الجبار. وأخذت تعدو بخفة ونشاط لا تعهدهما في نفسها. وفتحت باب الحديقة، وألقت على الدار الأنيقة الفخمة القائمة في وسط الحديقة الواسعة نظرة كلها حقد واحتقار. وراحت تعدو في الطريق، كانت المسكينة تجهل أن باب الحديقة متصل بسلك كهربائي فيه جرس يرن في غرفة نوم السيد (غوليه) كلما فتح باب الحديقة إمعاناً بالحيطة والحذر.

ويقفز الفرنسي وزوجه من سريرهما وبيد كل منهما بندقية كانت دائماً في متناول أيديهما، وينظران من النافذة، وتقول الزوجة:

ـــ هذه هي زينب تحمل صرة وتعدو في الطريق، إلى أين تذهب ولمّا تشرق الشمس؟

ويقول الزوج :

ـــ ستلحق اللعينة بالثوار حتماً .. لأن أخاها قد مات البارحة في السجن ، كانت الغبية تطلب مني دائماً أن أتوسط لإخراج هذا الثائر المتمرد بحجة أنه صغير السن لم يتجاوز الخامسة عشرة ، سأقتلها قبل أن تصل إلى مأربها .

وتقول الزوجة :

ـــ دعها لي ، دعني أجرب مقدرتي في الرماية .

ثم تقول وهي تصوب بندقيتها :

ـــ كانت الشقية خادمة ممتازة ، أمينة ، ونشيطة ، خدمتنا عشر سنوات ، ولكنني لا أدري لم كنت أتوجس منها خيفة ، كأنها تكبت شيئاً في نفسها . وتطلق بندقيتها . وتلتفت زينب نحو الصوت ثم تتابع عدوها بسرعة أكثر ..

ويقفز عبد الجبار من كوخه عندما يسمع أزيز الرصاص ، ويقترب من حاجز الحديقة ، وينظر إلى الطريق ، ويلوح له شبح زينب من بعيد فيبتسم قليلاً عندما يطمئن عليها . ولكن طلقة ثانية راح يئن أزيزها فوق رأسه ، ويرى شبح زينب يترنح ذات اليمين وذات اليسار ثم يهوي إلى الأرض ، ويهوي معه قلب عبد الجبار ! ثم يسمع ضحكة

عالية أطلقتها حنجرة الرجل الذي كان يسميه بالطيب، سمعها وكأنها قهقة قرد في غابة كثيفة موحشة.

ويذهل عبد الجبار لحظة، وهو يحملق عينيه ثم يرتد إلى غرفته صلباً.. لقد صمم أمراً لن يثنيه عنه شيء.

وما هي إلا لحظات قليلة حتى يخرج من الحديقة ويعدو في الطريق نحو زينب التي كانت تتخبط في بركة من دم، حتى إذا صار على بضع خطوات منها سمع دوياً هائلاً، وتفتح زينب عينيها للمرة الأخيرة فترى الدارة الأنيقة تهوي بين ألسنة اللهب، وعجيج الدخان والغبار، وتلمح عبد الجبار يلهث ويرتمي إلى جانبها وهو يقول لها:

ـــ لقد فعلتها يا زينب.. ألقيت قنديل الزيت وهو مشتعل من الكوة التي تطل على مخزن الذخائر، لن يستطيعوا أن يتغلبوا علينا أبداً.. اطمئني، يا زينب، اطمئني... وتطبق زينب عينيها وعلى فمها ابتسامة!.

# قصّة عمار

قصة عمار هذه يا طالما سمعتها من جدي، وفي كل مرة كنت أجدني مأخوذة بها، متلهفة على متابعتها وكأني أسمعها لأول مرة. وما كنت أدري إذا كان مرد ذلك إلى طرافة القصة وروعتها، أم إلى حديث جدي العذب الطلي الذي لا بد له أن يأسر مستمعيه، فقد كان جدي قاصّاً بالسليقة، عميق الصوت، بطيء الإشارات، يعرف كيف يبدأ قصته بداية مشوقة، وكيف ينهيها نهاية تترك في النفس انطباعها العميق. وكان يروي لنا هذه القصة بالذات كل مرة على نحو جديد يختلف عما سبقه تماماً. فمرة كان يحلو له أن يبدأها بوصف بطل القصة فيقول لنا:

ـ كم أتمنى لو أنكم عرفتم ابراهيم عمار!.. لقد عشت طويلاً، ورأيت كثيراً فما وقع والله نظري على شبيه هذا الرجل أبداً.

كان عمار فلتة من فلتات هذا الدهر، عملاقاً بين الرجال، قوي البنيان، عريض المنكبين، ضخم الرأس، حاد النظرات، له

مهابة تملأ النفس، وجمال يملأ العين، أما خلقه وكرمه ومروءاته فما يُبارى بها أبداً.

وتارة كان يحلو لجدي أن يبدأ القصة بوصف موكب الحج. ويسهب في تصوير الموكب حتى يخيل إليّ أنني أراه يسير أمامي. كان يقول لنا:

ــ سقى الله ذلك العهد.. فوالله ما عرفت بلاد الشام موسماً أطيب من موسم الحج. كان الحجاج يفدون إلى دمشق من الصين، والتتر، ومن الأفغان، والعجم، ومن بلاد الترك، والكرد، فيمكثون في دمشق أياماً طويلة يغنون أسواقها بما يبيعون ويشترون، ثم يسيرون جميعهم تحت لواء الحج الشامي إلى أرض الله المقدسة. وكان الحجاج يحبون دمشق ويقدسونها، ويطلقون عليها اسم (شام شريف).

كان موكب الحج يبدأ من سراي المشيرية[1] وكان الوالي أو المشير مع كبار الموظفين يقفون أمام باب السراي بألبستهم الرسمية الموشاة بالقصب. ثم يؤتى بالمحمل على جمل مزوق بطرر حمراء وأجراس مفضضة. وكم كان لذلك الهرم الضخم المكسو بالمخمل الأخضر المطرز بالقصب من مهابة في نفوسنا جميعاً. وكيف لا

(١) السراي التي كانت مكان القصر العدل اليوم وكان يقيم فيها المشير الحاكم أو الوالي.

يكون كذلك وهو رمز الحج، أمنية كل مسلم. وكان الوالي أو المشير يأخذ مقود الجمل الذي يحمل المحمل ويسلمه إلى الباشا ــ أمير الحج ــ فيتلقاه هذا منه بخشوع ثم يقبله متباركاً به، وعندئذ كانت تصدح الموسيقى العسكرية، ويقود الباشا المحمل بضع خطوات، ويسير الموكب في طريق حي الميدان يتقدمه جمل آخر يحمل السنجق ــ علم الحج ــ وهو مكسو بالقطيفة الحمراء المطرزة بالقصب أيضاً.

فإذا وصل الموكب إلى مكان، كان يدعى ــ مصطبة الشيخ سعد الدين الجباوي ــ حيث ضريح الشيخ الجباوي، تريث قليلاً ريثما يخرج من مقام الشيخ أحد أحفاده معتمراً عمامة خضراء كبيرة، ومرتدياً جبة خضراء أيضاً يتقدم من الجمل حامل المحمل ويلقمه لقمة كبيرة كالكرة مصنوعة من معجون اللوز والجوز والفستق مع السكر. ولا أزال أذكر كيف كان الجمل يلوك بشراهة لقمته اللذيذة التي لا يفوز بها من جماعة الإبل إلا من كان له شرف حمل المحمل، وكان الناس يتسابقون ويتزاحمون حول الجمل يلملمون الفتات التي تتساقط من فمه ثم يتهادونها للبركة، ثم يتابع الموكب سيره، حتى إذا وصل إلى القدم ــ من ضواحي دمشق ــ توقف

هناك في ساحة كبيرة ريثما يجتمع شمل الحجاج وما كان أروعه منظراً كنا نرى أشكالاً وألواناً من السحن والأزياء لا تخطر ببال.

فإذا أزفت ساعة الرحيل، ونادى المنادي أن الباشا قد أمر بالمسير، كانت تقرع عندئذ الطبول ويكبر الناس ويهللون ويهزجون، وتهب الجمال هبة واحدة ويأخذ العكامون[٢] بزمامها، كما يأخذ المهاترة[٣] بزمام الخيول. وكان العكامون والمهاترة ينتخبون من أشداء الرجال الذين يصبرون على المكاره، وكانوا يرتدون سراويل سوداء فضفاضة، وميانين[٤] مقلمة، وعلى رؤوسهم لفّات ذات عذبات طويلة.

وكنا نرى المحارات[٥] المدهونة بألوان زاهية تتمايل على ظهور الجمال. وكان يتوسط الركب ــ التختروان[٦] ــ الذي يعد لركوب الباشا أمير الحج.

ويسير الركب، ويلوح له المودعون بأيديهم، وفي قلوبهم لهفة

---

(٢) العكامون: هم الذين يقودون جمال الحجاج.

(٣) المهاترة: هم الذين يقودون الخيول والبغال.

(٤) ج ميتان وهو ما يلبسه الرجل فوق القميص مع السروال.

(٥) المحارة كهودج صغير وتعد غالباً لركوب النساء.

(٦) التختروان كغرفة صغيرة مربعة تركز على بغلين ضخمين ويفرش داخلها بحشايا من الدامسكو أو المخمل وتعد للباشا ولكبار موظفي الحج وللموسرين من الحجاج.

عارمة لزيارة بيت الله الحرام، يضرعون إلى الله أن يناديهم في العام المقبل إلى زيارة بيته العتيق.

وكان عمار زينة هذا الموكب كله، يرى دائماً في الطليعة ممتطياً حصاناً أدهم فارهاً، وعلى كتفيه عباءة سوداء قد طرزت حواشيها بخيوط مذهبة، وعلى رأسه عقال مذهب ثبته على كوفية سوداء لها طرر مذهبة أيضاً، تتأرجح على كتفيه كلما خب به جواده الأدهم الأصيل يحف به دائماً عدد من السقّاية، والعكامين والمهاترة فكان كأنه والله قائد عظيم.

وكنت أجدني أصغي إلى حديث جدي فاغرة فمي وخيالي الفتي يرسم صوراً رائعة لهذا الرجل الذي يبدو لي كأبطال الأساطير.

وأحياناً كان يطيب لجدي أن يبدأ قصة عمار هذا من نصفها، أو من آخرها كأنه قاص عصري فيقول لنا:

ـــ كنت ذات مرة عائداً من حجتي الثانية، فلما جاوزنا منتصف الطريق، ودخلنا وادي النار، ذلك الوادي الرهيب الذي يتلوى بين شعاب جبال شاهقة سوداء، هناك كانت تبدو الصحراء وحشية الرهبة، عنيفة القسوة. وما أدري لم كان الحداة يصمتون عن حدائهم في هذا الوادي المخيف كأن وحشته كانت تلجم أفواههم فلا يسمع

فيه إلا رنين أجراس الإبل، وحسيس السير فوق رماله المرمضة. فلما خرجنا منه إذا أحد الأدلاء يرتقي هضبة صغيرة كائنة في نهاية الوادي، وينادي بصوت عال حزين الوقع، مضطرب النبرات:

ـــ يا حجاج بيت الله الحرام تريثوا هنا قليلاً، واقرأوا الفاتحة على روح عمار.

وتثير كلماته في نفسي ذكرى مؤلمة تجعلني لا أملك حبس دموعي وتحملني الذكرى إلى قبل عشر سنوات مضت، يوم كنت في طريقي إلى تأدية فريضة الحج لأول مرة، حيث مررت بهذا الوادي ذاته، وشهدت فيه كارثة مروعة هيهات أن تنمحي فصولها من ذاكرتي.

ويتريث الحجيج قليلاً ريثما تقرأ الفاتحة ثم يتابع سيره. وأسمع الحجاج من حولي يسأل بعضهم بعضاً:

ـــ ومن عساه يكون عمار هذا الذي تريثنا من أجله، وقرأنا على روحه الفاتحة؟

ويجيب الذين لا يعنيهم من أمر هذه الدنيا شيء:

ـــ مالنا وماله؟ حسبنا أننا قرأنا الفاتحة على روحه الطاهرة لعله ولي من أولياء الله الصالحين!. ويقول الذين يدعون العلم في كل شيء:

ـــ عمار رضي الله عنه صحابي من أصحاب رسول الله ﷺ .

ويرد عليهم الذين أوتوا شيئاً من العلم :

ـــ ولكن عماراً الصحابي ما دفن هنا قط .

ويبتسم جدي ويقول : كنت أسمع ذلك كله وأنا صامت أترحم على عمار . فإذا انتهوا من حدسهم وتخمينهم رحت أقص عليهم خبر عمار فأقول لهم :

ـــ لم يكن عمار ولياً ولا صحابياً كما تظنون . إنما كان رجلاً شهماً من أهل الشام ومن حي الشاغور فيها . وظل يتعهد سقاية الحج الشامي سنين طويلة ، وهذه مهمة شاقة عسيرة وذات أهمية كبرى كما تعلمون تحتاج إلى خبرة ودراية ، ولا يعهد بها إلا إلى رجل ثقة قدير كعمار رحمه الله . وكم كان الحجاج والقائمون على الحج يحبونه ، فما بخل عمار بالماء مرة مهما كان الماء شحيحاً .

وذات عام كان الحر شديداً لافحاً ، وكان الحجاج أكثر منهم في كل عام ، وراحوا يطلبون الماء بكثرة فلا تنقع لهم غلة ، وراح السقاية يتذمرون ويخشون أن ينفد منهم الماء فيشكون أمرهم إلى رئيسهم عمار .

ولكنه وهو الكريم المتلاف كان ينتهرهم ، ولا يأبه لتحذيرهم

أبداً، ويأمرهم أن يقدموا إلى كل حاج كفايته من الماء، ويقول لهم:

ــ لا عليكم أنتم، سنصل غداً مع طلوع الفجر إلى البئر الثرة الكائنة في وادي النار والتي اعتدنا أن نحط رحالنا عندها كل عام. وسنعبيء كفايتنا من مائها الغزير.

ولكن حدث ما لم يحدث أبداً. ولم يكن في حسبان عمار!! عندما حط الركب عند البئر الموعودة، وذهب السقاية ينضحون منها الماء وجدوها ناضبة ليس فيها جرعة ماء واحدة، وكان الماء الذي يحملونه قد أوشك على النفاد، ويرتدون إلى عمار يحملون إليه خبر السوء. ويا هول ما سمع عمار!!.

إنه هو وحده المسؤول عن هذه الكارثة المريعة التي ستفني الحجيج الشامي بأسره، لقد فرّط بالماء أكثر مما ينبغي ولم يسمع لتحذير السقاة وتذمرهم.

ويسري الخبر بين الناس سريان النار بين الهشيم، وما أسرع ما تشيع الفوضى، ويستولي الذعر على النفوس، فيعلو الضجيج وتختلط أصوات الرجال ببكاء النساء، برغاء الإبل وصهيل الخيل. وأرى عماراً قد ازرق وجهه حتى كاد يسود، كان يتفرس في وجوه الناس كأبله مذعور يحاول تهدئة القوم فما يفلح أبداً.

ولن أنسى مرآه وهو يركض كالمجنون بين شعاب الجبال فوق الرمضاء حاسر الرأس، كأنه يود قتل نفسه ولكنه يخشى غضب الله فيستجير بتلك الجبال لتخلصه من محنته، كان يجأر بصوت يبعث القشعريرة في الأبدان:

ـــ يا جبال وادي النار انهدي حمماً على عمار!.

ويصل الخبر إلى الباشا أمير الحج فيأمر أن نغذ السير ما أمكننا لنخرج من هذا الوادي اللعين الذي كانت جباله السود كأنها تفح ناراً تشوي جلودنا. وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى خرجنا إلى صحراء مترامية الأطراف مد البصر.

هناك أمر الباشا أن نحط رحالنا مرة ثانية ودعا إلى خيمته عماراً وجميع الأدلاء وبعض ذوي الرأي من الحجاج ليتداولوا الأمر فيما بينهم. ويقول جدي معتزاً:

ـــ وكنت واحداً منهم. وأشهد أن الباشا كان رفيقاً بعمار فلم يوجه إليه تأنيباً أو لوماً، وفي مثل هذه الحال كان يباح له أن يضرب عنقه. وبعد المشورة يجيء الرأي: إننا لا نستطيع أن نواصل سيرنا أبداً فالبئر التي تليها بعيدة جداً، والماء الذي معنا لا يكفينا مؤونة الطريق. وربما هلكنا جميعنا قبل أن نصل إليها. ويقول بعض الأدلاء:

ـــ كنا قد سمعنا أن غير بعيد من مكاننا هذا توجد بئر صغيرة كان ينزل حولها بعض الأعراب، وكانوا يفدون إلينا أحياناً يتكسبون من الحجاج عندما نحط رحالنا في وادي النار، ويقولون أن ماء تلك البئر عذب نمير ولا ينضب أبداً. فلو انحرفنا عن طريقنا شرقاً بضعة أميال استطعنا أن نصل إليها ونعبيء منها حاجتنا من الماء، ثم نعاود طريقنا الأصيل، ولا بأس علينا إذا تأخر ميعاد وصولنا إلى مكة يوماً أو بعض يوم، وليس أمامنا غير هذا السبيل.

ويـــــنبري آخـــــرون من الأدلاء ويقولـــــون:

ـــ ولكن البئر التي تتحدثون عنها تقع شمالاً من مكاننا هذا وليس شرقاً كما تتوهمون، وإنّا لواثقون من قولنا هذا.

ويحتدم الجدال بين الطرفين دون طائل، وإذا الباشا يقول:

ـــ مادام في الأمر شك فلا يجوز لنا أن نغامر بالحجيج كله، سنغامر ببضعة رجال منا يركبون الخيل ويسيرون مسرعين نحو الشرق يبحثون عن البئر، وسننتظرهم حتى صلاة العصر فإذا لم يعودوا أخذنا الطريق الثانية قبل أن يهبط الظلام.

ويمد الباشا يده إلى خرج قريب منه فيخرج منه كيساً مملوءاً ذهباً يفرغه أمامه كومة وهاجة ويقول:

ـــ وسيكون هذا الذهب كله من نصيب هؤلاء الرجال، وإذا لم يعودوا كان ديناً في رقابنا لورثتهم، وسيكون أجرهم عند الله عظيماً.

وقبل أن ينطق أحد بكلمة ينبري عمار وقد أشرقت أساريره ويقول بلهفة:

ـــ أنا لها وحدي يا باشا، والله لن يذهب معي أحد. أضرع إليك أن تعيد هذا الذهب إلى مكانه فلا حاجة لعمار به، ما فائدة الذهب يا باشا إذا عز الماء؟!!.

وقبل أن يتيح لأحد أن يتكلم يخرج من الخيمة مسرعاً ويأتي بحصانه الأدهم ويفتح قربة ماء يقدمها إليه ويقول له أحد الرجال:

ـــ ويلك! هل جننت يا عمار؟ أتدع هذا البهيم يعب الماء عباً ونحن أحوج ما نكون إلى كل قطرة منه؟.

ويرد عمار بهدوء يشوبه كثير من المرارة:

ـــ دعه يشرب لعلها آخر شربة له!.

ثم يمتطي جواده، ويشمل الجموع بنظرة تضمهم جميعاً، ثم يضرب صدره بكفه الضخمة قائلاً:

ـــ أنا لها وحدي يا رجال، اطمئنوا لن يخيبنا الله. إذا أذنت العصر ولم أعد إليكم فاعلموا أن الصحراء قد ابتلعت عماراً!... فإياكم أن

تنتظروني لحظة واحدة، وخذوا طريقكم شمالاً، وإنكم لواجدون البئر إن شاء الله.

وترتفع ألوف الأيدي تلوح له، وقد بدا على الوجوه شيء يسير من الاطمئنان، ويلكز عمار حصانه فيعدو به كأنه يطير طيراناً، ويروح حجمه يصغر ويصغر حتى يلوح كالغزال، ثم كالطائر، وتظل العيون تتابعه بلهفة حتى يصير كنقطة سوداء ما تلبث أن تذوب في الأفق البعيد.

ويرين السكون على هذه الجموع الغفيرة فلا يُسمع إلا طقطقة المسابح، ودوي رهيب ينبعث عن تمتمة الدعوات والابتهالات، وتمر الساعات بطيئة ثقيلة، والعيون لا تتعب من التحديق إلى الأفق. حتى الابل كانت ترى رابضة على الأرض مصغية بأعناقها الطويلة إلى الأمام، وفي عيونها استسلام ذليل إلى مصيرها المحتوم، حتى الخيل كانت ترى هادئة كأنها مهمومة وجميعها تحدق إلى حيث يحدق الناس كأنها تعي الكارثة المخيفة التي تنتظرها.

ويظل الجميع يترقبون بلهفة ما بعدها لهفة النقطة السوداء التي ستظهر في الأفق البعيد، والتي ستكبر وتكبر حتى تصبح عماراً على حصانه الأدهم الفاره يحمل إليهم بشرى النجاة.

ولكن النقطة السوداء لا تظهر قط، وتظل الصحراء على صمتها الرهيب الذي يقهر النفس ويكيدها كيداً.

وتحين العصر، ويعتلي المؤذن تلك الهضبة القائمة في نهاية وادي النار، ويؤذن العصر، وعندما يفرغ من الآذان يقول بصوت يقطر حزناً ولوعة:

ــ يا حجاج بيت الله الحرام اقرأوا الفاتحة على روح عمار!... وخذوا طريقكم شمالاً وإنا لواجدون البئر إن شاء الله.

ويسير الركب حزيناً واجماً وتظل أعناق الناس مصغية إلى الوراء تبحث في الأفق البعيد عن نقطة سوداء تحيل الحزن فرحاً، واليأس أملاً.

وما هي إلا ساعات قليلة حتى وجدنا البئر. وكان قد بدأ يخيم الظلام، فراح السقاية ينضحون منها الماء، وكلما أخرجوا دلواً لا بد لهم أن يصرخوا: رحمة الله عليك يا عمار، وراح الناس يشربون ويغتسلون. وتظل في القلوب حرقة هيهات أن يطفئها الماء النمير.

ومنذ ذلك الحين وكلما مر الحجيج الشامي بوادي النار وانتهى إلى تلك الهضبة ذاتها، لا بد أن يعتليها أحد الأدلاء وينادي:

ــ يا حجاج بيت الله الحرام تريثوا هنا قليلاً واقرأوا الفاتحة على روح عمار!.

# سـراب

قال محدثي :

قلت لصديقي وكنا قد وصلنا مطار جنيف في صباح يوم مشرق أغر :

ـــ لا أدري يا أخي ما الذي حملك على الإسراع بالمجيء بنا إلى المطار قبل قيام طائرتنا بساعات ؟ .

فما كان ضرك لو تركتنا نستمتع قليلاً برؤية تلك البحيرة الرائعة التي لا تملها العين ولا تسأمها النفس ؟ .

ويضحك صديقي ساخراً ، ويقول :

ـــ دعك من هذا .. أتحسب أنني أصدقك ؟ . أقسم بالله أنك لم تر من البحيرة الرائعة شيئاً ! . لقد كنت مأخوذاً بتلك الحسناء التي كانت تجلس بالقرب منا على شرفة الفندق ، والتي كانت تخصك بين حين وآخر بنظرات كلها اغراء .

قلت : ورأيتها أنت ــ على ما يبدو لي ــ غير حافلة بك ، ولا آبهة لأمرك ، فغاظك منها ذلك ، فرحت تلح علي بالمجيء إلى هنا ، حتى أضجرني الحاحك فطاوعتك ، وياليتني لم أفعل ! .

قال صديقي : إنك والله لظالم فيما تتهمني به ! فأنا قد أشفقت عليك من الوقوع في حبائل هذه الحسناء اللعوب ، وعهدي بك سريع المأخذ ، ونحن على وشك السفر ، ووشك الافلاس أيضاً ، فأحببت أن أنقذك من هذا المأزق الحرج .

قلت : شكراً لكَ على اهتمامك هذا . ولكن أرجوك بعد اليوم ألا تشفق علي من الحب مهما كانت الأسباب وجيهة ، كان الأحرى بك أن تشفق علي من عدم الوقوع في حبائله ، أنا الذي شارفت الخامسة والعشرين من عمري ولم أذق طعمه بعد ! وكلما أقدمت عليه وجدتني أحجم عنه دونما سبب كأني أرهبه .

قال صديقي : لا عجب في ذلك أبداً . لأن من العسير على من كان مثلك يعيش في دمشق ، في بيئة محافظة متزمتة كبيئتك ، أن يستمتع بالحب كما يستمتع به الآخرون ، فالحب في مثل هذه الأجواء مصادفة قد يجود بها الدهر وقد لا يجود ! ومع ذلك لا أخفيك أنني أستغرب كيف تعامت بنات حواء عن قوامك السمهري ، وعينيك

الجذابتين ، فلم يمهدن لكَ السبيل إلى الحب ، وعهدي بهن صيادات ماكرات لا يفلت من حبائلهن من كان على شاكلتك .

قلت ضاحكاً : يا ليتني كنت أسمع هذا الاطراء من فم هذه الحسناء مثلاً ، لا من فمكَ أنت ! وأشير بيدي إلى حسناء صغيرة كانت تعبر ردهة المطار بمشية خفيفة رشيقة ، وقد تركت شعرها الأشقر يموج على كتفيها بلا انتظام ، وارتدت بنطالاً قصيراً أزرق ، وقميصاً أبيض ينحسر عن ذراعيها المفتولتين ، وعنقها الأتلع .

قال صديقي : قم بنا نتبعها ، وجرب أن تتحدث إليها ، فأنت تجيد اللغة الفرنسية عسى أن تفارقك تلك الرهبة التي تستولي عليك أمام الحسناوات ، وتحرمك من مغامرات الحب . ولعلك تحسن ظنك بي عندما تعوض هنا ما فاتك هناك على شرفة الفندق بسببي .

وقمنا على الفور نسير في إثر الفتاة ، وكانت قد خرجت من ردهة المطار ، ودخلت مقهى أنيقاً أقيم في المطار لراحة المسافرين ، وقد انتشرت فيه موائد صغيرة ذات أغطية برتقالية اللون ، وفوق كل مائدة زهرية فيها باقة من الليلك البنفسجية تعطر الجو بأريجها المنعش ، وتضفي عليه بهجة ، ورونقاً ، وسحراً . وفي زاوية المقهى أقيم ( بيك آب ) يبعث بموسيقى شجية ناعمة ، وكلما صمتت الموسيقى كان يقوم أحد الحاضرين فيضع في ثقب بجانبه شيئاً من

النقود على الاسطوانة التي يرغب في سماعها فتعود الموسيقى إلى صدحها الشجي. وجلست الفتاة بمفردها أمام إحدى الموائد في أقصى المكان الذي يكاد يكون خالياً من الزوار في ذلك الصباح، إلا من بضعة أشخاص انتشروا حول الموائد هنا وهناك.

قال صديقي: يظهر لي من ألبستها أنها ليست على أهبة السفر، ربما جاءت إلى المطار لتستقبل صديقاً لها.

فقمت من فوري بلا تردد، وهندمت ملابسي، وسويت شعري واتجهت صوبها، وأنا أحضر في ذهني ما سأقوله لها، فلما صرت أمامها تماماً ارتج علي، شأني دائماً مع كل حسناء، وأخذت أنظر حولي كأني أستنجد الأشياء لتسعفني، ويقع نظري على الشارع العريض الذي يبدو من الشرفة التي وراءها والذي يصل المطار بمدينة جنيف، فقلت لها بعد أن حييتها:

ـ هل تسمح الآنسة فترشدني إلى أين يصل هذا الشارع العريض؟.

فابتسمت بخبث ثم قالت هازئة:

ـ وإلى أين تريده أن يصل، إن لم يصل إلى جنيف؟.

قلت: إنني يا آنسة غريب. وبليد أيضاً كما ترين. وستتأخر

طائرتي قليلاً فهل تسمح الآنسة أن أتناول معها فنجاناً من القهوة ؟ .

فضحكت وقالت : بكل سرور ..

فقعدت قبالتها وقلت لها :

ـــ يبدو أن الآنسة جاءت هذا الصباح لتستقبل أحد ركاب الطائرة الآتية .

ـــ لا ، أبداً ولكن من عادتي أن أقوم كل صباح بنزهة طويلة على دراجتي ، فإذا تعبت دخلت أحد المقاهي فاسترحت قليلاً ثم عدت أدراجي ، وكانت وجهتي هذا الصباح طريق المطار .

ـــ هذا من حسن حظي .

وتتوقف ، أثناء ذلك الموسيقى فتبدي أسفها ، فأقوم حالاً وأتجه نحو (البيك آب) وأضع في ثقبه شيئاً من النقود قائلاً ، فيما بيني وبين نفسي : يا حظي ! فإذا هي موسيقى راقصة .

قالت دهشة : هذه موسيقى راقصة ، لم اخترتها ؟ .

ـــ لم أخترها أنا ، تركت اختيارها لحظي الذي أراه حسناً هذا الصباح على غير عادته ، فإذا الموسيقى تدعونا إلى الرقص .

قالت مستغربة: إلى الرقص؟ في هذا الصباح الباكر؟ وفي ألبسة الرياضة؟.

ـــ هل في سويسرا قانون يمنع ذلك؟.

ـــ لا أبداً، نحن أحرار هنا، مادمنا لا نزعج الآخرين.

ـــ وهل سينزعج الآخرون إذا رقصنا الآن؟

ـــ لا أظن، ولكنهم سيضحكون منا حتماً.

ـــ ولا أجمل من أن نرقص نحن، ويضحك الآخرون.

قالت: فلنرقص إذن.

وتهب واقفة، وآخذها بين ذراعي، ونبدأ الرقص، وكنت منذ سنتين حاولت أن أتعلمه فلم أفلح أبداً. ولكني وجدت قدميّ في ذلك الصباح تساعدانني على اللف والدوران كأبرع من رقص.

وتلقي الفتاة رأسها على صدري، وتتفرس في وجهي بوله، وأروح أتيه في أغوار عينيها الحالمتين حيناً، المتوقدتين أحياناً، وكأنه قد اختلطت فيهما زرقة بحيرات سويسرا بخضرة مروجها.

كنت أشعر أنني أطير في أجواء سحرية، ما حلم خيالي في ارتيادها يوماً، لقد نسيت كل شيء، الزمان والمكان ـــ وصديقي

أيضاً الذي كنت ألمحه بين حين وآخر يقوم إلى (البيك آب) فيعيد إلينا الموسيقى كلما توقفت عن العزف.

كنت أوثر الصمت، ولكن الصبية تكلمت فسألتني قائلة:

ـــ أحقاً أنك ستسافر بعد قليل؟.

أجبت بلهجة آسفة: نعم يا عزيزتي، بعد قليل!.

ـــ وإلى أين ستسافر؟.

ـــ إلى بلادي.

ـــ وهل بلادك بعيدة؟

ـــ نعم بعيدة.. بعيدة جداً. هل تستطيعين أن تحزريها؟

ـــ صفها لي.

ـــ أنا من أقدم مدينة على وجه الأرض.. أنا من بلاد ازدهرت فيها حضارات، وقامت فيها دول، وفنيت دول، ورغم ذلك كله ظلت صامدة للخطوب، هازئة بالدهور. أنا من مهبط الوحي، أنا من أرض الأنبياء، أنا من بلاد السحر والخيال، أنا من بلاد ألف ليلة وليلة، أنا من منابع البترول، أنا من مناجم الذهب.

ـــ حسبك. لقد حزرت. أنت عربي إذن.

قلت معتزاً: نعم يا عزيزتي، أنا عربي.

قالت: يا لروعة هذه المصادفة الغريبة.. لكم حلمت منذ كنت صغيرة أقرأ ألف ليلة وليلة أن يخطفني فارس عربي أسمر، رسمه خيالي على شكلك تماماً، وفي عينيه لهفة تنم عن نبل، واخلاص، كما في عينيك، لم أعهدها في عيون فتيان بلادي، ثم يطير بي إلى قصره الساحر القائم على واحة خضراء، في صحراء مترامية الأطراف، يلوح لي سرابها من بعيد حيناً بعد حين.. وراح الحلم يعاودني صباح مساء حتى عشقت صاحب الحلم، وعزفت عن كل من كان يتقرب إليّ من الرجال، ومازلت عزوفة عنهم إلى الآن.

قلت: وأنا أيضاً يا عزيزتي لكم حلمت أن يكون لي حبيبة صغيرة، على شكلك تماماً، حتى ليخيل إلي أنني أعرفك منذ زمن بعيد. أتصدقين أنني أنا الذي تريننني ذلق اللسان كنت ألجم أمام كل حسناء كأنني كنت مرصوداً من أجلك ومن أجلك وحدك.. كم كنت أحلم أن يكون لي حبيبة يشقيها فراقي ويضنيها، فإذا سافرت جاءت تودعني، وتلوح لي بمنديلها الأنيق، ثم ترده إلى عينيها لتكفكف به دموعها المنهمرة.. ألا يمكن لكِ أن تفعلي ذلك من أجلي بعد قليل ولو على سبيل التمثيل؟ ألم يسبق لكِ أن ودعت حبيباً إلى غير رجعة؟

وتنظر إلي كالعاتبة وتقول :

ـــ لا . لم يسبق لي ذلك أبداً ، ولكـن أراني الآن سأودع ذلك الحبيب ! .

وما كادت تنتهي من قولها هذا ، حتى أعلن مكبر الصوت قيام طائرتي . فتوقفنا عن الرقص ، وراحت هي تتفرس في وجهي بذهول وتقول كالحالمة :

ـــ ما أقصر هذه الساعة الحلوة يا فارسي العربي !
أهكذا يموت حلمي الجميل ، ويمسي سراباً ؟ !

ـــ ثم تتسع عيناها الجميلتان ، وتمتلئان بالدموع ، وتلقي رأسها على كتفي وتجهش بالبكاء ! .

كان الأسى يهصر قلبي وأنا أتملى من جمالها وهي تبكي . ويتمثل في خاطري قول الشاعر العربي الذي كنتُ أنتقد مبالغته عندما يصف لنا حبيبته في ساعة وداع ، فيشبه لنا عينيها بالنرجس ، ودموعها باللؤلؤ ، وخديها بالورد .

لقد كان الذنب ذنبي إذن ! لم يسبق لي أن رأيت كما رأى هو ، عينين نرجستين يتساقط منهما الدمع كاللؤلؤ الرطب ، على خدين كأنهما الورد الندي .

ووجدتني أنا الذي عهدتني عصيَّ الدمع، يطفر الدمع إلى عينيّ فجأة ثم ينهمر غزيراً من مقلتيّ فيختلط بدموعها، ويعلو نشيجنا.. كما يعلو ضحك صديقي. كان الخبيث يصوب إلينا آلة تصوير، ويلتقط لنا صورة، ليبرزها حجة كلما حلا له أن يرويها نكتة للأصدقاء.

ثم يتقدم منا، ويفرق بيننا وهو يقول لي ضاحكاً:

ــ أحقاً أنك تبكي؟ أو تعرفها من قبل؟

ما عرفتك والله مجنوناً إلى اليوم.. ثم يأخذ بيدي ويتجه بي إلى الطائرة التي كانت على أهبة القيام. وأراها وأنا أصعد السلم تلوح لي بمنديلها، ثم ترده إلى عينيها لتكفكف به دموعها المنهمرة. ثم ترتفع الطائرة فتغيب عن ناظري، وأمعن في البكاء.

أتفلت مني فتاة أحلامي بعد أن لمستها بيدي ثم يغيبها القدر عني كما يغيب السراب أمام التائه في الصحراء؟

ويأخذ صديقي في مواساتي، وتخفيف حزني فما يجديه ذلك نفعاً، ولما يئس مني قال لي:

ــ لم كل هذا الأسى يا صاحبي؟ مادام كلاكما مفتوناً بصاحبه يكفي أن تبرق إليها فتطير إليك من فورها.

وأضرب جبهتي آسفاً وأنا أقول له :

ـــ لقد نسيت ، نسيت أن آخذ عنوانها ! لماذا لم تذكرني ؟

ويضحك صديقي هازئاً شامتاً ويقول :

ـــ أراك ستظل في ميدان الحب غبياً ، بليداً مهما حالفك النجاح .

ــ لا فائدة إنه يحتضر ! .. قد ينتهي اليوم أو غداً ! .

وتخترق الكلمات أذنيه كرصاصات طائشة .. ويحملق بالطبيب الماثل أمامه فلا يرى منه إلا الشفتين الآثمتين اللتين أطلقتا الحكم القاطع على أبيه الحبيب .. ويظل في مكانه جامداً لا يتحرك كأنه لا يعي ما يسمع . والطبيب العجوز يربت على كتفه ويواسيه قائلاً له :

ــ كن يا بني رجلاً ، أنت أكبر إخوتك فلا تتخاذل أمامهم .. كلنا على هذ الدرب ، ما فائدة الحزن ؟ .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

ويفسح الطريق أمام الطبيب وهو ذاهل ثم يغلق الباب خلفه بحركة آلية ، كم يود لو أنه لا يصدق ما سمع ، ولكن كل شيء من حوله يؤكد قوله .. الحزن العميق بدأ ينشر ظلاله ببطء صامت على جوانب الدار حتى كأنها ما عرفت المرح والهناء فيما مضى من أيامها الخوالي .

زغردة النافورة التي تتوسط الدار راحت تقع على سمعه كولولة ثكلى على وحيدها . ! .

شجيرات الياسمين والزلف التي زرعها أبوه بيديه وعرَّشها على الجدران والشبابيك بدت لعينيه وكأنها أكاليل ذابلة على قبر شاب عزيز ! .

مرأى زوجات أبيه الثلاث وهن جالسات على كتف الليوان يكفكفن دموعهن وينظرن إلى بعضهن بعطف وحنان وكأن المصيبة المتوقعة قد جمعت بينهن وأذابت كل شحناء وبغضاء قامت بينهن في الماضي .

إخوته وأخواته الصغار ينظرون إلى أمهاتهم الباكيات بخوف ووجل وقد اصفرت وجوههم ، واتسعت عيونهم ولطى كل واحد منهم في ناحية يفسر حسب ادراكه ما يجري حوله من أمور مخيفة .

وتناديه أخته الكبيرة بصوت باك قائلة له :

ــ إن أباه يطلبه بإلحاح ، يريد أن يتحدث إليه وحده .

آه ، هل يستطيع أن يضبط نفسه أمام أبيه ، ويحبس دموعه المنهمرة ؟ .. ويسير خائفاً يجر رجليه يدخل غرفة أبيه .

وما يكاد المريض يشعر بدخوله حتى يفتح عينيه المتعبتين

ويشير إليه أن اقعد على حافة السرير. ثم ينتظر قليلاً كأنه يهدئ نفسه المضطربة، ويجمع قواه المتلاشية ثم يقول بصوت مخنوق كأنه آت من غير هذا العالم:

ـــ اغفر لي يا بني، سأترك لكَ حملاً ثقيلاً، وهمّاً كبيراً، ما كنت أحسب أن عمري سيكون قصيراً إلى هذا الحد!.

ـــ ما هذا التشاؤم يا أبي، نسأل الله أن يبقيك لنا.

ـــ لا فائدة مني، لقد انتهيت يا بني، وستكون أنت يا خالد رب هذه الأسرة من بعدي. فكن يا بني رفيقاً بها ما استطعت.

ـــ سامحك الله يا أبي! أتوصيني بإخوتي وأخواتي، هل أنا بحاجة إلى وصية!؟.

ويلوح على وجه الأب شبح ابتسامة ما يلبث أن يتوارى ثم يقول:

لا يا بني لست والله بحاجة إليها. أنا أعرف طيبة قلبك ونقاء ضميرك. ولكني أطالبك بوعد يخيل إليَّ أنه يصعب عليك تحقيقه، ولكن لا بد لي منه كي يطمئن قلبي عليك وعلى هذه العائلة الكبيرة التي سأتركها أمانة في عنقك.

ـــ سأكون كما تريدني يا أبي.

ويصمت الأب قليلاً ليريح أنفاسه المتعبة ثم يقول :

ــ ألا تعتقد يا بني أنك أديت ما عليك من واجب نحو وطنك ؟

ويحاول الابن أن يقاطع أباه ليقول له :

ــ وهل يحدد واجب المرء نحو وطنه مادام هو قادراً على أداء هذا الواجب ومادام وطنه بحاجة إليه ؟ .

ولكن الأب يستمر في كلامه :

ــ ألم تُحبس شهوراً طويلة في قلعة دمشق ، وتُعذب وتُهان لأنك دائماً في طليعة المناوئين للفرنسيين في هذا البلد ؟ ألم تنفَ إلى جزيرة أرواد وتُحبس فيها مع رفاق لك ما يقرب من السنتين وأنت لم تتجاوز العشرين من عمرك ؟ فكيف لي أن أطمئن عليك وعلى هذه الأسرة مادمت سائراً في طريقك هذه ؟ من يا خالد يرعى إخوتك الصغار إذا حُبست ؟ ومن يحافظ على أخواتك إذا نُفيت أو أصابك مكروه ؟. عدني يا ولدي أنك لن تخاطر بنفسك بعد اليوم .. فأنت لم تعد مسؤولاً عن نفسك فحسب ، ستصبح من بعدي رب أسرة كبيرة فحرام عليك أن تعرض نفسك للخطر وأسرتك للهوان .

وأخذ الابن يد أبيه يقبلها ويبللها بدموعه ويقول له صادقاً مخلصاً :

ـــ اطمئن يا أبي ، أعدك أنني لن أخالف مشيئتك أبداً .

ويغمض الأب عينيه ، وقد أتعبه الكلام فتعاوده الغيبوبة ، وترتسم على فمه ابتسامة اطمئنان ورضى .

ويخرج خالد من غرفة أبيه موزع النفس مشتت الفكر يشعر بالضياع ، لا يستطيع أن يجمع فكره ليسأل نفسه هل أخطأ أم أصاب عندما قطع على نفسه هذا العهد أمام أبيه المحتضر ؟.

لم يكن يدرك أنه يحب أباه إلى هذا الحد . منذ ماتت أمه أصبح أبوه مزواجاً فكان أحياناً يلومه ، وأحياناً يحقد عليه بينه وبين نفسه ولكن سرعان ما يعود ويغفر له عندما يرى حنانه الفائض الذي يغمر به أفراد أسرته الكبيرة على السواء ، لم يخطر له أن أباه سيموت يوماً ، ويترك له هذا العبء الثقيل . كان دائماً ممتلئاً صحة ونشاطاً كأنه في عز شبابه ، وإن كان قد أشرف على الستين . لا تفارق الابتسامة شفتيه مهما كان متعباً . ينهض بأعباء أسرته الكبيرة دون أن يشكو مرة أو يتذمر أو يحمّل أحد أبنائه بعض أعبائه ، يريد دائماً أن ينهض وحده بالحمل الثقيل ، إنه شمعة هذا البيت ، أيطفئها الموت هكذا على أهون سبب ؟!. كم يتمنى أن يفديه بأعز ما لديه !.

ويسمع طرقات متتالية على باب البيت ، طرقات لا يخطئها

سمعه ، إنهم رفاقه الذين يعمل معهم في منظمة سرية تنظم المظاهرات والاضرابات داخل البلد ، وترتبط بالثوار القائمين في الغوطة فتنفذ ما يطلبون من مهمات مهما كانت خطرة . آه لو أنهم يتركونه الآن وهمّه ، لن يستطيع بعد اليوم أن يكون واحداً منهم ، يقوم بما يقومون به من أعمال خطرة ، لأنه سيصبح رب أسرة كبيرة . لا شك أنهم سيعذرونه .

ويفتح لهم الباب . ويبادلهم تحية مقتضبة ثم يدخلهم إلى غرفته الخاصة . كانوا ثلاثة شباب يبدو عليهم الاضطراب ؛ ويهمّ أن يشرح لهم حاله وما سيؤول إليه أمره ؛ ولكن أحدهم يسبقه إلى الكلام بلهجة فيها تأنيب وعتب :

ـــ أين أنت يا أخي ؟ ما معنى غيابك عنا ؟ لم نرك منذ ثلاثة أيام .

ويقول آخر :

ـــ أتغيب عنا ساعة نكون في أشد الحاجة إليك ؟

ويتمهل بالجواب قليلاً ثم يقول بصوت مضطرب :

ـــ أبي مريض ، إنه يحتضر .. لن أستطيع فراقه لحظة .

ويحملقون به كأنهم لا يفهمون قوله . وكان أصغرهم أسرعهم إلى الكلام :

ـــ وماذا يعني ذلك ؟ هل نحن في ظروف عادية ؟ ألم أترك أنا أمي مريضة وأذهب إلى الأردن لأبتاع سلاحاً للثوار ، وعدت من هناك فلم أجدها .. إن أباك يا أخي سيموت كما يموت كل الناس على فراش وثير بين أهله وأولاده ، ولكن هناك في الغوطة شباباً تتناثر أشلاؤهم ، وتنزف دماؤهم ولا طبيب يسعفهم فيمسك عليهم رمق الحياة ، يقدمون على ذلك من أجلي وأجلك وأجل الآخرين ، ثم نتخلى عنهم في أحرج لحظة .

وينظر إليهم صامتاً لا يجد ما يقوله لهم . ويقول آخر :

ـــ القضية هامة يا خالد تتعلق بك بصورة خاصة ، اصغ إليّ :

غداً سيرسل الفرنسيون حملة كبيرة إلى الغوطة ، ستخرج كما علمنا مع طلوع الفجر ، والثوار كما تعلم قد نفدت ذخيرتهم كلها ولن يصلهم السلاح إلا غداً أو بعد غد ، ومعنى ذلك أن الحملة ستفنيهم جميعاً أو يساقون إلى السجون والمشانق !.. إلا إذا استطعنا نحن أن نعرقل سير الجيش يوماً أو أكثر كما طُلب منا .

ويرد عليهم ساخراً بنزق :

ـــ أمجانين أنتم ؟.. أنستطيع نحن أن نعرقل سير الجيش ؟.

ـــ نعم نستطيع .. إذا استطعنا أن ننسف جسر ( تورا ) الذي

سيمر الجيش فوقه ، ولا بد له عندئذٍ أن يعود إلى دمشق ريثما يصلح الجسر ، لأن طريق الجسر هذه هي أسلم الطرق إلى الغوطة في نظر الفرنسيين ، وليس بيننا كما تعلم من يجيد صنع القنابل والألغام غيرك ، وقد نفد ما كان لدينا منها ، فانظر أي خدمة تستطيع أن تؤديها إلى الثورة ، ترى لو بقيت هنا إلى جانب أبيك ، أتستطيع أن تهبه الحياة ؟ ولكنك تستطيع أن تدفع عن المجاهدين خطراً كبيراً إذا نسفت الجسر .

ويشعر بالخجل أمام رفاقه ، ويدرك أن عاطفته القوية نحو أبيه قد أعمته عن الحق ، وكادت تصرفه عن الواجب الذي رهن له نفسه حتى آخر حياته .

ولم يجد ما يرد به عليهم سوى أن يسير أمامهم منكمشاً ، موزع النفس ، يشعر بخزي ذليل فيندى جبينه بالعرق ، ويقول في نفسه :

ـــ غفر الله لك يا أبي ، كم كنت أنانياً عندما طالبتني بهذا الوعد !.

ويغلق باب بيته وشعور خفي يوحي إليه أنه لن يعود إليه أبداً . وكان أحد رفاقه قد أدرك ما يدور في نفسه فراح يربت على كتفه قائلاً له :

ـــ هكذا عرفناك دائماً يا خالد .. ها أنت ذا قد عدت إلينا . إن ظروفك قاسية ، ولكن هناك ما هو أسمى من شؤوننا الخاصة . ليطمئن بالك ، سنتعهد أسرتك إذا أصابك أي مكروه ، سنواري أباك التراب ، وسنكون كلنا أبناءه .

بقي خالد يعمل طول الليل في بيت منعزل لا يثير الشبهات ، كان قد اتخذه ورفاقه مقراً لاجتماعاتهم السرية ، وجعل خالد من إحدى غرفه معملاً صغيراً مجهزاً بأدوات بدائية وببعض مواد كيمائية ، واستطاع بما خبره من تجاربه الخاصة ومن بعض معلومات كان قد اكتسبها أيضاً عندما كان يعمل في ورشة ميكانيكية ، أن يصلح بعض الأسلحة الفاسدة وأن يصنع قنابل وألغاماً يمد بها الثوار ، وكان العسكريون منهم يدهشون لنجاحه في عمله هذا ، ويعجبون من بعض اختراعات يتفتق عنها ذهنه ، فيقوم بتصميمها وصنعها بنفسه في معمله الصغير ؛ ويحسب من يراها أنها صُنعت في معامل خاصة بالأسلحة . كان ينكب على عمله هذا ليال طويلة غير آبه لأخطار الانفجارات التي قد يتعرض لها أثناء العمل .

واستطاع في تلك الليلة أن يصنع قنبلة هائلة ؛ لم يشأ أن يجعلها مؤقتة خشية أن يخونه الحظ كما خانه ذات مرة ؛ فتنفجر قبل مرور الجيش أو بعده ، آثر أن يوصلها بسلك طويل ؛ وعندما

يُجذب السلك ستنفجر القنبلة حتماً ؛ هذه أسلم طريقة ؛ ولكن من يجذب السلك عند مرور الجيش ؟... نادى رفاقه وعرض عليهم الأمر ؛ لقد اعتادوا أن يقترعوا فيما بينهم عندما تقتضي الحاجة أن يقوم أحدهم بمهمة خطرة وإذا القرعة تقع هذه المرة على خالد . وإذا هو يفرح بهذه المصادفة لأن المغامرة ستنجح حتماً وستنفجر القنبلة في الوقت المناسب فهو يثق بنفسه أكثر من أي شخص آخر من رفاقه ؛ لن تخونه أعصابه مهما بلغت خطورة المغامرة .

قبيل الفجر كان خالد ورفاقه يدفنون القنبلة تحت الجسر ؛ ويمدون السلك المتصل بها إلى حفرة غير بعيدة عنه ، ثم يقعد خالد في الحفرة ويسترها رفاقه بالأعشاب والأغصان اليابسة ويطلبون من خالد ألا يبرح الحفرة حتى يعودوا إليه ويدبروا نقله إلى مكان أمين . ويختبيء كل واحد منهم في مكان ليراقبوا انفجار القنبلة .

وتمر الساعات على خالد بطيئة ثقيلة كدهور طويلة ، وهو قابع في الظلام ويده على السلك . لم يخطر له أبوه المحتضر ، ولا أسرته الحزينة ولا العهد الذي قطعه على نفسه وحنث به بعد ساعات . لم يعد يشعر بشيء ؛ أو يفكر بأمر ؛ كأن كل حواسه قد استحالت آذاناً ؛ وآذاناً مرهفة تتلقف أضعف الأصوات .

ومع طلوع الفجر سمع هديراً خفيفاً راح يشتد شيئاً فشيئاً

فقدر أنه هدير دبابات الجيش، وانتظر قليلاً ثم جازف ومد رأسه بين الأغصان التي تغطي الحفرة فإذا هو يرى طلائع الجيش قد بدأت تقترب من الجسر فاقشعر جسمه، ووجف قلبه ولكنه ظل مالكاً أعصابه فعاد وانكمش على نفسه بضع دقائق، ويده على السلك. لم يخفه سوى أمر واحد.. هو أن يطرأ على القنبلة خلل فلا تنفجر الانفجار الذي يتوقعه لها ويتمتم:

ـــ يا رب خذ بيدي، يا رب أعنّي.. لا تخذلني.. ويجذب السلك وتمر اللحظة الرهيبة... وإذا دوي هائل! أكثر مما كان يتوقع، تهتز منه الأرض كأن زلزالاً قد اعتراها.

لم يجازف هذه المرة ويمد عنقه بل ظل مكوماً على نفسه وظلت أذناه تتلقفان الأصوات، فإذا ضجيج وزعيق، وصراخ وأنين، ويشعر بالحزن يعصر قلبه فيسد أذنيه كي لا يسمع شيئاً، آه كم يكره القتل.. لم يسبق له أن ذبح عصفوراً. ويقول في نفسه:

ـــ ربي هؤلاء المستعمرون جعلوني قاتلاً بالرغم عني. وتسترخي أعصابه المشدودة فيشعر بالألم يدب في مفاصله وأطرافه، وبرطوبة الأرض تتسرب إلى جسمه كأن حواسه كانت في شغل عنه فلما أنهى مهمته راحت تستيقظ شيئاً فشيئاً، وبدأ يشعر بضيق يكاد يكتم أنفاسه كأنه سجين في قمقم وما يدري كم مضى عليه من الوقت وهو

ينتظر رفاقه حتى لم يعد يستطيع صبراً، ويقرر أن يخرج من الحفرة، ويعود إلى بيته ليرى أباه للمرة الأخيرة، وليقضي الله ما يقضي.

ويزيح الأغصان عن الحفرة ويمد رأسه وينظر إلى مكان الانفجار فيرى عجيج الغبار لم يهدأ بعد وأناساً كثيرين يثيرون لغطاً وضجيجاً. ويقفز من الحفرة ويتلفت يميناً ويساراً كأرنب مذعور، ثم ينفض عنه التراب ويسير متأنياً وهو يترقب في كل لحظة أن يُقبض عليه، ويسير مسافة طويلة دون أن يعترضه أحد كأن هناك قوة خفية كانت تعمي عنه الأبصار، ويفكر أن يستأجر عربة ليواري فيها نفسه ويمد يده إلى جيبه فلا يجد فيها شيئاً من النقود، لقد نسي محفظته في البيت، هذه غلطة يجب أن ينبه إليها رفاقه عندما يكلف أحدهم بمهمة خطرة يجب أن يزود بشيء من المال لما يطرأ عليه من مفاجآت ليست بالحسبان.

ـــ ويظل جاداً في سيره، فمازالت المسافة بعيدة إلى بيته. ترى هل مات أبوه أم مايزال يقاسي آلام الاحتضار؟ وماذا يقول عنه أفراد أسرته وقد قضى هذه الليلة الرهيبة بعيداً عنهم؟ لا شك سيتهمونه بالعقوق واللامبالاة، وهو لا يستطيع أن يبوح لهم بالسر ليبرر لهم غيابه عنهم، ويشرف على سوق الحميدية، فيرى جنازة تتجه نحو الجامع الأموي يسير وراءها عدد قليل من المشيعين فيهبطُ قلبه

ويتفرس بهم من بعيد فيرى أهله وبعض أصدقائه فيعرف أنها جنازة أبيه ! ويشعر كأن خنجراً حاد النصل ينغرز في قلبه شيئاً فشيئاً ، ويظل مسمراً في مكانه حيران . أيركض ويأخذ مكانه وراء النعش وليحدث ما يحدث ! ويتقدم منه رجل ويهزه بعنف ، إنه أحد رجال الأمن من الذين يعملون لصالح الوطنيين ويتجسسون على الفرنسيين في نفس دوائرهم . ويقول له :

ـــ أمجنون أنت ؟ لم أتوقع أن أراك هنا !

ويسحبه إلى منعطف متوار ، ويهمس في أذنه :

ـــ أليست فعلتك ؟ لقد حزرت .. حادثة اليوم عظيمة .. عظيمة جداً . إنها أروع ما قمت به ، يقولون أن عدد الضحايا قد بلغ المئة ، والضباط الفرنسيون يكادون يجنون غيظاً .. ويحسبون أن دولة أجنبية تمد الثوار بالعتاد وبالفنيين ، ومع ذلك فالشكوك تحوم حولك ، إننا جادون في طلبك ، وقد أُمرنا أن نأتي بك حياً أو ميتاً !

ويرد عليه ساهماً كأن ما قاله الرجل لا يعنيه :

ـــ أتعلم أن الجنازة التي كانت تمر من هنا هي جنازة أبي !

ـــ أعلم ذلك ، والآن قد انتهى كل شيء ، يجب أن تفكر بنفسك ،

أركب عربة أو سيارة واذهب إلى مكان أمين. هيا دبر نفسك. لا أستطيع أن أقف معك أكثر مما وقفت.

ـــ ولكن ليس معي قرش واحد.

ويمد موظف الأمن يده إلى جيبه فيخرج شيئاً يدسه في يد خالد ثم يتوارى عنه مسرعاً.

ويصل خالد إلى مكانه الأمين، إلى البيت المنعزل الذي اتخذه ورفاقه مقراً لهم. ويظل مختبئاً فيه أياماً، والفرنسيون جادون في طلبه ولما يئسوا من العثور عليه، أجروا له محاكمة غيابية وحكموه بالاعدام شنقاً!

استطاع رفاقه بعدئذٍ أن يدبروا له الهرب من دمشق. ويظل مشرداً عن بلده حتى ينجلي عنها الفرنسيون.

بعد عشرين عاماً كاملة ويوم عيد الجلاء الأول، أروع عيد عرفته الشام، كانت هذه القصة تمر في خاطر رجل كهل وهو واقف على ناصية الطريق القائمة على مدخل دمشق، وكلما سمع الهتافات الحماسية التي تطلقها حناجر الشباب رقص قلبه طرباً وامتلأت عيناه الوديعتان بالدموع، وشعر بالاعتزاز يملؤه لأنه ساهم في صنع هذا اليوم العظيم، ويسرح في نشوة عارمة إلى أن يوقظه منها صوت شرطي

ممن أوكل إليهم حفظ النظام كان يدفعه في صدره ، ويصرخ في وجهه قائلاً :

تنح يا هذا عن مكانك !. ألا ترى أنه مخصص للرجال الرسميين ؟

ويضحك خالد ملء فمه ، كانت فرحته في ذلك اليوم العظيم أكبر من أن يشوبها أي كدر .. ثم يقول للشرطي :

ـــ الله يسامحك .. الحق معك يا أخي . أنا لست من الرسميين .

ثم يتراجع إلى الوراء ، وينخرط بين الجموع الغفيرة التي يعلم الله كم كان بينها من مناضلين أمثاله ، ولكنهم دائماً في الصفوف الأخيرة ، لأنهم شخصيات غير رسمية !.

# الصقيع في الربيع

كانت طالبات الصف يقلن عنها : إنها جذابة .. وإن سر جاذبيتها كان يكمن في عينين سوداوين تتألقان في وجهها كنجمتين ، وفي غمازتين نادرتين تنطبعان على خديها الأسمرين كلما ابتسمت . وما أكثر ما كانت تبتسم ! فأيام حياتها كانت تجري هينة لينة لا كدر فيها ، كجدول ثر في سهل أخضر .

وذات يوم انقطعت ذات الغمازتين عن المدرسة ، وما عرف أحد سبب انقطاعها هذا ، إلى أن تلقت بعد سنين عديدة إحدى صديقاتها ـــ وكانت تعنى بكتابة القصص ـــ رسالة منها تروي فيها قصة حياتها وترجوها أن تنشرها بين قصصها لأنها تريد أن يقرأها الناس . وتقول لها في الرسالة فيما تقول :

إنها قصة قديمة ، ليس فيها شيء من طرافة الجدة ، ورغم ذلك فهي ماتزال كمشكلة قائمة في مجتمعنا ، إن استطاع بعضنا أن

يتحرر منها فما يزال بعضنا الآخر ضحية لها حتى اليوم. ولذا فهي جديرة بالكتابة والمعالجة، وهاهي القصة:

كان يترقبها كل يوم أمام باب المدرسة شاب أسمر طويل، وإن لم تتبين ملامحه جيداً من وراء حجابها الكثيف، فإن وسامته لم تخف عليها.

كان يسير وراءها يتبع خطواتها كأنه خادمها الأمين، حتى تصل بيتها. وكان بيتها يقع في حي قديم لا تصل إليه إلا بعد أن تقطع أزقة ضيقة معتمة، وتمر بطرق ملتوية ذات منعطفات. وكثيراً ما كان يخلو الزقاق من المارة فيسيران وحدهما فترة ليست بالقصيرة. كان صدى خطواته المتزنة الثقيلة عندما يختلط بوقع خطواتها الرشيقة على بلاط الزقاق يصل إلى سمعها كموسيقى حلوة لم يمّح صداها من ذاكرتها حتى اليوم.

كانت دائماً تتوقع أن تسمع منه شيئاً، كلمة غزل رقيقة، دعابة حلوة، شأن غيره من الشبان الذين يدأبون على ملاحقة الفتيات مثيلاتها، ولكن صاحبها هذا كان يظل سادراً في صمته، بعيداً عنها لا يكاد يتعدى المسافة التي تفصل بينهما أبداً.

أما هي فكان جل ما تفعله هو أن تتراشق في مشيتها أكثر من

عادتها، وأن تشد أحياناً معطفها على خصرها النحيل ليبدو جمال جسمها وحسن تكوينه.

ويظلان على حالتهما تلك أكثر من شهر، لا يخلف ميعاده معها أبداً، وتصبح هي كأنها تنتظر هذا الميعاد، وتحن إلى رفيق دربها، وتأنس به وتخشى أن تفقده يوماً ما.

ولكنها بدأت تستثقل صمته، وتتساءل إلى متى سيطول هذا الصمت؟؟.. أتبادؤه الحديث؟. ولكن هذا لا يليق بفتاة محافظة على التقاليد مثلها. ويخطر لها خاطر مريع يهلع له قلبها: لعله أخرس؟ وتستغرب هلوع قلبها. وإذا هي تخادع نفسها وتموه عليها فتقول:

مالي وماله؟؟.. إن كان أخرس أو فصيحاً؟ ولكن شيئاً في أعماقها كان يهزأ بها ويقول لها:

لماذا يشرد ذهنها إليه إذا حان الميعاد، فلا تعود تفقه من الدرس شيئاً؟ كانت تنظر إلى ساعتها في كل لحظة تستبطئ سير الزمن وتتمنى أن تطير إليه ليسيرا معاً في جلال صمتهما المهيب إلى آخر الدنيا.

وذات مرة قبل أن تصل إلى دارها بخطوات يمر بها شاب وقح

من شباب الأزقة، يستغل خلو الزقاق من المارة حين لم يفطن للعاشق الصامت الذي كان يسير وراءها غير بعيد عنها، ويروح يتحرش بها فيسير ملاصقاً لها، ثم يمد يده فيمس خصرها وهو يعرض بها بأغنية شائعة آنذاك:

«يام الخصر الممشوق حيرتيني من أين أمرق»

وإذا هي تسمع صوت صاحبها يصرخ به:

ـــ اخرس يا قليل الحياء.

ثم يتناوله بصفعة حامية تجعله يترنح من الرصيف إلى الرصيف..

وتتوقف هي عن السير قليلاً، وشعور مفاجئ من التيه يملأ نفسها، وتتمنى في تلك اللحظة أن تعيش في ظل حمايته طول عمرها.. وتجدها فرصة مناسبة لأن تحدثه. فتلتفت إليه وتتفرس في وجهه عن قرب، من وراء حجابها فتؤخذ بوداعة عينيه العسليتين الواسعتين وتقول له مرتبكة:

ـــ شكراً... الله يسلم يديك.

فيبتسم في وجهها بخجل ويقول:

ـــ من يستطيع أن يمسك بسوء؟؟

ثم يردف هامساً :

ــ غداً ستبدأ العطلة ، ولن أراك حتى تفتح المدرسة ! !

كان يقولها بلهجة عميقة الأسى ، وما يكاد يتمها حتى تجد نفسها فجأة أمام دارها فيحييها بهزة من رأسه ثم يتابع دربه .

كان ذلك في آخر يوم من شهر رمضان ، وفي الغد ستغلق المدارس أبوابها بمناسبة عطلة العيد .

دنيا جديدة انفتحت أمامها ، كل شيء فيها يضحك .. ما أحلى رسم هالات مضيئة حول حبيب مجهول ، وما أجمل الانتظار على أمل اللقاء ..

كانت أيام هذا الأسبوع ألذ أيام حياتها ، عاشتها بكل ذرة من ذرات كيانها .

وكانت أمها قد قالت لها ذات يوم :

ــ لقد أصبحت صبية على عتبة الزواج ، سأشتري لك بضعة أذرع من حرير ملون تطرزينها قمصاناً للنوم في أوقات فراغك . فما أحلى الصبية التي تطرز جهازها بيدها .

وتشتري أمها الحرير . ولكنها لم تهتم به أبداً . تركت الرزمة كما هي مهملة في أحد أدراجها ، وكلما حثتها أمها على التطريز انتحلت

لها الأعذار، ولكنها في ذلك اليوم كانت ترغب أن تخلو إلى ذاتها، فلا تترك مجالاً لأحد يطالبها بعمل ما. لتدع خيالها يلعب، ويفتن باللعب كما يشاء. فأخرجت رزمة الحرير واختارت منها قطعة بيضاء رسمت عليها أزهاراً ربيعية، وجلست في زاوية من زوايا ساحة الدار، في ظل شجرة ليمون، كانت أمها قد غرستها يوم ولدتها، كما اعتادت كلما ولدت ولداً.

هناك تحت شجرتها المفضلة قعدت تطرز. في كل غرزة كان يورق لها حلم، وتغرد أمنية كما تغرد أجواق العصافير بين أغصان الليمونة الفينانة.

دفء الربيع، وشذى زهر الليمون، ودغدغات الحب البكر في القلب الفتي، واخضرار الأمل في عيني بنت السادسة عشرة، كؤوس خمر مترعة لكل رشفة نشواتها.. أراجيح ملونة تتلاعب بها فوق الغيوم.

لم تخرج أثناء العطلة من البيت، فقد أبت أن ترافق أمها في زياراتها كما هي عادتها. ظلت مكبة على تطريز أحلامها حتى أنهت القميص قبل آخر العطلة بيوم واحد. ولما رأته أمها دهشت من جماله واتقان تطريزه، فقالت لها:

ـــ ما كنت أعرف يا خبيثة أنك تجيدين التطريز إلى هذا الحد، أنا لم

أر أحلى منه عمري. أتمنى يا بنيتي أن ترتديه وأنت عروس لرجل يسعدك طول حياتك. فأشرق وجهها ولمعت عيناها، وهمت أن تحدث أمها عن الرجل الذي اختارته ليسعدها وتسعده مدى الحياة. ولكن الكلمات جمدت على شفتيها، خشيت تزمت أمها وأن تنكر عليها معرفتها برجل غريب. وآثرت أن تتحدث إليه أولاً. غداً ستفتح المدرسة، وستراه حتماً، وستطلب إليه بوضوح أن يخطبها من أبويها أو أن يكف عن ملاحقتها.

في ذلك اليوم عاد أخوها من عمله متجهم الوجه، وأنكرت منذ دخل البيت تصرفه معها. لاحظت أنه كان يراقب كل حركة من حركاتها وكأنه يحاول أن يخترق بنظراته الثاقبة رأسها الصغير ليعرف ما يدور فيه من أسرار. لم تكن في يوم على وفاق مع أخيها الوحيد الذي يكبرها بخمس سنوات. وكان من الذين يحبون أن يفرضوا سيطرتهم على كل من حولهم ولكن سرعان ما كانت تتناساه وتسرح من جديد في خيالاتها المجنحة...

عادت إلى المدرسة وبدأت تترقب انتهاءها منذ الدرس الأول، وما مرت عليها ساعات بطيئة ثقيلة كمثل تلك الساعات.

ويحين الوقت فتخرج من المدرسة وتلمحه واقفاً في مكانه كالمعتاد، فيكاد يطير قلبها إليه. وتتابع سيرها، ويسير هو خلفها غير

بعيد عنها كما هي عادته. كانت مضطربة مرتبكة، تحاول في كل لحظة أن تلتفت إليه، وتحدثه بما عزمت أن تحدثه به ولكن شيئاً ما كان يلجم لسانها.

وتتساءل:

هل سيعود إلى صمته الثقيل؟؟ أم أن الطريق لم تخل اليوم من الناس؟ وهو لا شك حريص ألا يسيء إلى سمعتها فيما إذا تحدث إليها ورآه أحد معارفها، أو أقاربها.

وسرعان ما يمضي الوقت وتصل بيتها فما عرفت الطريق قصيراً أبداً كما عرفته اليوم.

وإذا هو يتقدم منها بخجل وحذر ويدس في يدها رسالة زرقاء. آه ما أحلى رسائل الحب!.. هذه أول رسالة حب تتلقاها...

ولكن لم يُكتب لها أن تقرأها أبداً!!

لقد انشقت الأرض عن مارد يخطف الرسالة من يدها، ويدفعها بعنف إلى الدهليز، ثم يغلق الباب خلفها ويعود إلى الطريق ليحاسب صاحب الرسالة حساباً عسيراً!!

قصة حبها ماتت في المهد.

لقد ضفر أخوها من موتها الحزين إكليل شرف يتوج به جبهته.

راقب أختك: كلمتان لئيمتان حملهما البريد إلى أخيها في ورقة بلا امضاء. ويراقب الأخ أخته، فتقع في الفخ من أول يوم!

لا شك أن كاتب الرسالة هو الفتى الرقيع الذي تحرش بها ذات يوم فقد لمحته يضحك شامتاً ساعة دفعها أخوها إلى البيت. لقد عرف الوضيع كيف يثأر لنفسه.

أما أبوها ــ بعد أن بلغته القصة ــ فلا يريد أن يرى وجه النحس أبداً، تلك التي تجرأت على خدش شرف الأسرة الرفيع.

قطع الله نسل البنات... ولولا براءة الرسالة التي وصلتها ونبل قصدها لكان للسكين والدم والبالوعة دور في القصة!!.

ويصدر الحكم بأن تنقطع عن المدرسة، وأن لا تخرج من البيت إلا في صحبة أمها، ولأمر ضروري.

حتى أمها الحنون كانت قاسية في لومها، ولم تستنكر هذا الحكم الجائر أبداً.

وفي عيني أخيها تلتمع فرحة الانتصار، وفي أصابعها رغبة ملحة لأن تستل هذه الفرحة اللئيمة من عينيه. ولكن يدها مشلولة

لا ترتفع، وثورتها الجامحة تظل مكبوتة في أعماقها لا تجرؤ على الظهور. إنها تدرك تماماً بأن أخاها لا يريدها أن تتزوج أبداً.. سيضع العقبات في طريق زواجها ما أمكنه ليستأثر وحده بثروة أبيه، ويجعلها أسيرة في بيته كحشرة في بيت عنكبوت يقيدها ألف قيد هي أضعف من أن تفلت منها.

آه كم تكره هؤلاء الذين أقاموا أنفسهم حماة لها.. ولكن ماذا تستطيع أن تعمل غير أن تحبس نفسها في غرفتها الصغيرة كلما ضاقت بها الدنيا.

الصقيع يملأ أرجاء الغرفة الصغيرة.. وكآبة سوداء تلف كل شيء فيها.. قميصها الجميل الذي طرزت عليه أحلامها معلق على المشجب كفتى وحيد مصلوب أمام عيني أمه!!..

وتتناوله برفق، وتطويه بحنان ثم تدفنه في قعر صندوق عتيق ليأكله العث على مهل.

أصبح ليلها طويلاً بلا نجوم، وعيناها حزينتين بلا دموع، والقهر حجراً صلداً يربض فوق أحشائها ولا يتزحزح أبداً.

في صباح ذلك اليوم بالذات سمعت أمها تشهق وتقول لأبيها:

ــ يا ويلي ما الذي جرى لشجرة الليمون؟؟..

البارحة كانت كالعروس، واليوم ذبلت أوراقها مرة واحدة وسقطت جميع أزهارها ! .. انظر كأن بساطاً من زهر أبيض مفروش حولها .

وكان أبوها قاعداً في صدر الليوان، كسلطان من سلاطين ألف ليلة، يدخن النارجيلة باسترخاء. ويسحب النربيش من فمه ويقول :

ـــ ربما أصابتها لفحة صقيع . . .

وتقول أمها :

ـــ ومن أين جاء الصقيع ونحن في الربيع ؟؟ ..

ويقول أبوها :

ـــ ليس أقتل من الصقيع في الربيع .. ما أحسبها تنجح بعد اليوم ومن الخير أن نقطعها .

كان يقولها ببرود ولامبالاة يثيران الغيظ والحنق في قلب الأم، فتجيبه بنزق :

ـــ أعوذ بالله ! فأل الله ولا فألك ! إني أتشاءم من قطعها . لا . لا لن يقطع الليمونة أحد وأنا حية .

ويلوي شفتيه من سخف كلامها، ويعيد النربيش إلى فمه، فيسحب نفساً طويلاً تكركر له النارجيلة ببلادة.

ذهب ربيع وأتى ربيع ولم تبرعم شجرة الليمون زهرة واحدة. كان ماء الحياة يجف في أغصانها يوماً فيوماً، منذ هجرتها أجواق العصافير ومنذ تساقطت أوراقها ونتأت أشواكها حادة كالخناجر..

وتنزاح الستارة ذات صباح أمام عيني الأم عن مأساة مريعة... كانت تتفرس في وجه ابنتها الشاحب وتتساءل برعب:

أين اختفت الغمازتان الحلوتان؟ وكيف حل محل كل واحدة منهما غضون. إذا ضحكت الصبية اقتربت الغضون من بعضها وبدا وجهها كوجه عجوز هزيلة..، وهكذا العينان البراقتان أصبحتا كهفين أسودين انطفأت فيهما الأحزان!!

ولكن ماذا تستطيع الأم أن تفعل؟ هي أيضاً امرأة تقيدها خيوط العنكبوت.

ويستحيل الكمد في قلب الأم سرطاناً يأكل كبدها بنهم ويزداد شراهة كلما خطرت ببالها جملة مخيفة مرعبة:

ليس أقتل من الصقيع في الربيع.

# العودة أو الموت

لقد سُدت في وجهي جميع أبواب الرزق .. لذلك لم أجد مناصاً من الرضى بأن أعمل سائق سيارة للأجرة . غير أنني اشترطت على رب العمل صاحب السيارة بأن يكون عملي في الليل رغم ما في ذلك من مشقة وجهد ، فالليل أخفى للويل كما يقولون .

كنت أقبع منكمشاً على نفسي خلف مقود السيارة أواري وجهي من المارة خشية أن يراني أحد معارفي أو أصدقائي .

كنت أتخيل الدهشة التي ستعتريه ، والأسف المرُّ الذي سيرتسم على وجهه وهو يحدق بي كأنه يقول في نفسه وقد خامره الشك في أمري :

لكِ الله يا نكبة فلسطين ! ! أحقاً ما أرى ؟ ؟ ..

أيصبح حسن بك سائق سيارة للأجرة ؟ ! . هذا الذي كان أحد الوجهاء البارزين في يافا ، والذي كانت هوايته الوحيدة هي

اقتناء السيارات الفخمة، حتى كان يبدل سيارته كل عام بسيارة جديدة.

وأتمثله كيف يدور على عقبيه ثم يختفي من أمامي، إما رحمة بي واشفاقاً علي، أو تحاشياً لما قد يحرجه من حالي.

على أنني ما لبثت وقد مر الزمن، حتى تبلد احساسي، وتجمد شعوري، ولم تعد تمر بخاطري أمثال تلك الخواطر السخيفة. لقد ألفت عملي هذا واستكنت إليه، ورضيت بالواقع المر، وأصبحت أعيش ليومي فقط، وأعمل كآلة صماء. لقد تساوت في نظري قيم الحياة ومفاهيمها، فلا فرق عندي بين خيرها وشرها، رفيعها ووضيعها، وأصبحت تراني أحدق بالمارة وأنا خلف مقود السيارة كأني أتحداهم واحداً واحداً، أو كأني أقول لهم:

أنا فلان بن فلان وقد أصبحت كما ترونني فأي دعوى لكم عندي؟؟.

وكنت قد اتخذت لسيارتي موقفاً أتصيد منه الركاب أمام ملهى ليلي مشهور قرب مطار دمشق.

وذات ليلة عاصفة وقد قاربت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وأنا ماأزال قابعاً في مكاني خلف المقود، انتظر خروج رواد الملهى، وأقاسي سآمة الانتظار، وقساوة البرد، أدخن اللفافة تلو

اللفافة وأعصابي في خدر ثقيل، لا شيء يثير اهتمامي ليذكرني بيوم كنت فيه من رواد أمثال هذه الملاهي، بل من زبائنها المرموقين.. كادت تنقطع كل صلة لي بالماضي الذي أخذ يبدو لي على قربه سحيقاً، سحيقاً كأنه مغطى بضباب كثيف.

ويخرج من الملهى رجل قصير بدين وإلى جانبه امرأة فارعة الطول، وأراه بعد قليل يشير إلي بطرف اصبعه، وأسارع لتلبية طلبه، لقد اعتدت على تلبية اشارات الأصابع كأي سائق عتيق.. وتنساب سيارتي إلى حيث وقف، وإلى جانبه المرأة الفارعة. وما يكاد ضوء السيارة يقع على وجهها حتى أعرفها لأول وهلة رغم ما طرأ عليها من تغير.

كانت هي (ميمي) بعينها.. تلك الحسناء اللعوب التي كانت تعمل في ملاهي يافا قبل النكبة. وكان قد سبق لي أن عاشرتها آنذاك مدة طويلة أغدقت عليها خلالها أموالاً طائلة حتى أذكر أنني أهديتها فيما أهديتها سيارة بويك خضراء. وما كدت أعرفها حتى اعتراني ارتباك شديد فخطر لي أن أتراجع، ولكن يد الرجل كانت قد أدركت باب السيارة، ومرت (ميمي) من أمامي واستوت في السيارة إلى يمين الرجل دون أن تلتفت فتراني أو تأبه لي واستطعت أن أحدق بها قليلاً. ولم يعد في نفسي أدنى شك بأنها هي ولكن المسكينة

كانت ترتدي ثياباً رخيصة على غير عادتها وقد اختفت أناقتها، وتلاشت كبرياؤها التي قلما كانت تُرى على مثيلاتها من النساء، وبدت لي وكأنها على أبواب الكهولة، رغم أنها لا تزال في ريعان صباها. وخيل إلي أنني أستطيع أن أسيطر على أعصابي المضطربة..، ما هي إلا دقائق وستمر بسلام..، وأخذت أشعر بغصة مرَّة وأقول في نفسي:

يا لتصاريف القدر! أين أنا اليوم من يوم كنت فيه أسوق سيارتي الخاصة وإلى جانبي (ميمي) في عز شبابها وجمالها يحسدني على صحبتها كثير من الشباب. وخطر لي أن التفت إليها وأقول مازحاً:

حتى أنتِ، لقد أزرى بكِ الدهر بعدنا!!..

وما أدري لم اعترتني رعدة هزتني هزاً عندما سمعت صوتها ذا الرنة الشجية والتي كان سحرها يبلغ أعماق نفسي وهي تحدث الرجل قائلة له:

ـ أين هي سيارتك؟ أعرف أن لكَ سيارة خاصة.

ويجيبها الرجل بصوت ثمل:

ـــ **لقد بعتها من أمد قريب . لأنني أرغب في شراء سيارة من طراز جديد .**

وتقول ميمي :

يا سلام ! عظيم ! عليك بالبويك إذن . لقد جربتها .. ليس بين السيارات سيارة تضاهيها فخامة ومتانة . كان عندي سيارة بويك خضراء أهداها إلي صديق عزيز .

ويقاطعها الرجل بلهجة ساخرة ، وكأنه ظن أن المرأة تلمح له ليشتري لها سيارة ، أسوة بصديقها العزيز :

ـــ يا سلام .. أنت كان عندك بويك ! ؟ .. ومن هو صديقك العزيز هذا الذي يهدي السيارات البويك ؟ ؟ ..

وترد عليه بلهجة مفعمة بالأسى :

هو من يافا . وقد مات المسكين شهيداً في حرب فلسطين ! .

ويقهقه الرجل وهو يقول :

ـــ الله يرحمه ... ويغرقه برحمته ... خلصنا منه الحمد لله .

وأكاد أشهق دهشة من جوابها غير المنتظر .. وما لبثت أن

وجدتني أقود السيارة ساهماً .. فاغراً فمي، محملقاً بلا شيء، وأنا أقول في نفسي:

ـــ أميت أنا إذن في نظر بعض الناس؟؟..

أماتتني اللعينة بسهولة لا مزيد عليها!.. بكلمتين فقط، كلمتين باردتين.. كم أصبحت هيناً عليها!.. أماتتني وهي تعلم يقيناً أنني حي أرزق.. ولكنني ميت في نظرها مادمت معدماً، لاجئاً، مسكيناً، لا يملك شيئاً. هل نسيت اللعينة الأموال التي أغدقتها عليها؟. ماذا يحدث لها يا ترى لو أنني التفت إليها الآن، وأضأت النور، وأريتها وجهي ثم قلت لها: رحمة الله على شهيدك الكريم!!..

هممت أن أفعل ذلك ولكنني ما لبثت أن تراجعت وأنا أقول في نفسي:

لا لا.. لا يحق لي أبداً أن أحرجها أو أربكها، وقد منت علي ساعة لفقت هذه الكذبة، واختارت لي هذه الميتة الشريفة الكريمة شكراً لها.. لقد أماتتني والله حيث كان يجب علي أن أموت... أليس الموت خيراً من هذا الهوان؟؟..

ويفوتني بعض حديثهما، ثم أسمعه يقول لها بسخرية لاذعة:

ـــ إن صاحبك اليافاوي هذا كان كريماً متلافاً ، وبطلاً مغواراً في آن واحد . لقد أهداك كما تقولين سيارة بويك ، وهذا ليس بقليل ، ولكنه أهدى فلسطين روحه ! .. فهو كريم متلاف في كل الميادين على ما أرى .

وكان يشد على الكلمات ويمطها امعاناً في السخرية .

وترد عليه متصنعة الغضب والنزق :

ـــ ما أقساك ! .. أتهزأ حتى بالشهداء الأبرار ؟ .. اطو لنا هذا الحديث ، أخشى أن يجرنا إلى جدل ينتهي بخناقة . أنت دائماً لا تصدق ما أقوله .

ويجيبها ببرود :

ـــ والله إنني لا أهزأ بقولك ... وهل أتجرأ على ذلك ؟ ؟ .. ومتى كنت لا أصدق ما تقولين مهما كان نوعه .. ؟

ولكنني أستغرب ما سمعته منك الآن ، فأنا أعرف تماماً أن الرجال الذين يجودون بالسيارات الفخمة على الحلوات أمثالك في مثل الظروف الحرجة التي كانت تمر بها فلسطين لا يمكن أن يكونوا من الصنف الذي يجود بأرواحه من أجل بلاده . فصاحبك هذا على ما

يبدو لي نسيج وحده، ولذا فقد حاز كل اعجابي، وتقديري، واحترامي.

قالت:

ــ يا إلهي.. ألا تكف عن سخريتك منه اليوم؟؟ أنا أعرف أن مبعث ذلك هو الغيرة. أنت غيور لا تستطيع أن تسمع مديحاً لغيرك ولو كان ميتاً، ولا تستطيع أن تخفي شيئاً في نفسك. ألم أقل لكَ دعنا من حديثه؟.. الله يرحمه..

فقهقه ضاحكاً ثم قال:

ــ أنا غيور؟؟.. ما أبعد الغيرة عني!.. ما كنت والله لأغار من أصحابك الأحياء فما قولك بالأموات منهم؟.. إن الرجل الذي يستطيع أن يثير غيرتي لم يخلق بعد، ولن يخلق أبداً.

قالت بدلها المعهود:

ــ كم يعجبني غرورك.. إنه يستهويني.. ما أحلاه..

وكان جوابه لها قبلة طويلة، صك صوتها مسمعي وأحدث في رأسي دوياً، وفي يدي اضطراباً. وشعرت برغبة ملحة في أن أسدد ضربة شافية لهذا الثقيل تهشم أسنانه.. ولكن لم كل هذا التجني؟؟.. ألأن الرجل نطق بالحق.. ألم أكن في الواقع واحداً من

هؤلاء المتعاونين ، اللامباليين ، الذين قصروا في حق بلادهم فلسطين ولم يؤدوا ما عليهم من دين لها ؟ . ألم أكن أعيش على هامش الحياة لا أبالي بكل ما يجري حولي من ألاعيب الاستعمار حتى أصبحت أحد الضحايا ؟ !

وأنتبه فجأة فإذا أنا أقود السيارة على غير هدى ، وكأنها قد جمحت بي ، فإذا أنا أسير في طريق مظلمة ، ما أدري والله كيف انتهيت إليها ، وقد أضعت اسم الشارع الذي سماه لي الرجل وهو يركب السيارة . وينتبه الرجل أيضاً وأنا في حيرتي هذه فيصرخ بي قائلاً :

ـــ العمى يعميك ، أما حمار بليد ! ! إلى أين أنت ذاهب بنا ؟ ؟

وأشعر بدمي يفور ، ويصعد مرة واحدة إلى رأسي ، وأجزم إن لم أحسن الهرب بأسرع ما يمكن فأنا مقدم على أمر فظيع .

ودون أن أفوه بكلمة أوقفت السيارة ونزلت منها بسرعة وصفقت بابها بكل ما لدي من قوة ، وأسرعت الخطى وتواريت في منعطف مظلم ، وتركتهما حيث هما يصخبان .

ليحدث ما يحدث ... ولتهو السماء على الأرض ... لم أعد أحتمل أكثر ما احتملت .

ورحت أهيم على وجهي في الظلام تصطرع في نفسي أحاسيس لا عهد لي بها. كأنني كنت في سبات عميق، فلما وقعت في هذا المأزق تنبهت فجأة وفتحت عيني على حقيقة بشعة، وثار ضميري كما لم أعرفه أبداً، ماردا عملاقاً، كما هو الآن:

كيف خرجت من بلادي؟؟.. وكيف رضيت هذا الذل والهوان واستكنت إليهما؟.. ولم لا أعود إليها فأروي أرضها الطيبة بدمائي كما أنطق الله هذه المرأة التافهة.

إن عزيمة صادقة راحت تتفجر في كياني، أستطيع الآن أن أتخطى الصعاب، وأقتحم المهالك.. وأجدني أعدو في الظلام كأن هذه الأفكار تدفعني إلى العدو، وترتسم في مخيلتي شطآن يافا وبياراتها الخضر فيخيل إلى أنني بالغها الآن.

ما أروع أن يكون للإنسان هدف يسعى إليه، كل ما فيَّ يصرخ:

«العودة أو الموت. ولن أحيد عنهما أبداً».

## ومضة برق

ـــ اطفىء النور .. إنه يرهق أعصابي ويتعب عيني .

قالت ذلك ـــ وهي تتحاشى النظر إليه ـــ بصوت خفيض ، فيه رقة ، وفيه عذوبة ، رغم لهجته الآمرة .

ودون أي اعتراض ـــ شأنه معها دائماً ـــ وضع الكتاب الذي كان يقرأ فيه جانباً ، ومد يداً معروقة ، طويلة الأصابع قد انتثر عليها شعر أسود ، وأدار زر الكهرباء ، فعم غرفة النوم الأنيقة ظلام حالك ، وسادها صمت ثقيل .

ويظل هو مستوياً على سريره كما كان ، متجهاً صوبها . وتظل هي ساكنة ، ممددة على سريرها المقابل لسريره ، واضعة يديها على صدرها ، متجهة بناظريها نحو سقف الغرفة .

لكم تمنى في تلك الليلة الباردة ، ذات العواصف الهوجاء أن يضم جسمها اللدن الصغير بين ذراعيه ، فينعم بدفء أنفاسها ،

وطيب عبقها .. ولكنها كانت قد أفهمته وهي تخلع ملابسها وترتدي قميص النوم : أنها تعبة جداً هذا المساء ، يرهقها النعاس ، ومنذ أكثر من ساعة وهي تتمنى أن ينصرف الضيوف الذين أطالوا السهرة أكثر مما ينبغي لترتمي في سريرها وتستسلم إلى النوم الذي ألح عليها كما لم يلح أبداً .

قال في نفسه :

يا لها من صغيرة ماكرة ! .. كم تجيد اختلاق الأعذار ، وكم تتقن التمثيل .. أتراها تكرهني وتضيق بي ؟؟ .

كل يوم تطالعني بعذر حتى تتهرب مني على هذا النحو ... متى ألح عليها النوم ؟؟ .. منذ لحظة فقط كانت تبدو أمام الضيوف نشيطة مرحة حتى إذا أغلقت الباب خلفهم بدأت تتثاءب وتتكاسل وقد فتر لحظها ، وتراخت أجفانها .

وتذكَّر أنها منذ أكثر من أسبوع تصرفه عنها كل ليلة بعذر من هذا القبيل فكان يخادع نفسه ، ويغالطها ويرغمها على تصديقها فيتقبل أعذارها برحابة صدر . وكأنه كان يفعل ذلك كله وهو لا يعي ما يفعل لأنه يريد أن يثبت لنفسه أنها لا تكرهه ، ولا تضيق به ، وإن كانت تبدو له غير مندفعة في حبه كما يتمنى ويشتهي .

وكان منذ تزوجها ــ ولما يمض على زواجهما سوى سنة واحدة ــ قد آلى على نفسه أن يكون معها متسامحاً، وديعاً، مرحاً، كريماً لا يرد لها طلباً، حتى يفوز بحبها ولو أن الفارق بين عمريهما ثلاثون عاماً.. فهي لم تتخط العشرين، وهو قد دلف إلى الخمسين. ولكنه رغم ذلك مايزال يثق بنفسه، فهو لم يتقن شيئاً في حياته كاتقانه فن مغازلة النساء. وإنه لمؤمن بأن لديه من الأساليب التي اكتسبها من كثرة معاشرته لهن ما يجعلها تتدله في حبه يوماً ما، كما سبق أن تدلهت الكثيرات غيرها.

ما قيمة العمر، وعدد السنين، مادام يشعر أنه ما يزال شاباً يتمتع بكل ما يتمتع به الشباب من حيوية ونشاط.

كما أنه لا يزال محتفظاً بوسامة ونضارة تثيران استغراب الكثيرين من أصدقائه ومعارفه، ولا سيما الذين يماثلونه في العمر.

ولكنه في هذه الليلة بالذات بدأ يشعر بخيبة مرَّة لا يستطيع أبداً أن ينكرها، أو يموهها.. وتجاه من؟؟.. تجاه المرأة التي أنهى عندها مطافه.. واختارها بعد تفكير وروية من بين كل من عرفهن من النساء لتكون شريكة حياته مدى ما تبقى له من العيش.. وكان قد أزمع فيما بينه وبين نفسه أن يخلص لها كما لم يخلص لغيرها أبداً.

فأي خيبة مرَّة يمنى بها الآن؟؟!..

ولا يدري لم مر بخاطره في زحمة أفكاره المضطربة وهو مايزال على جلسته تلك في الظلام الدامس أسماء رجال من معارفه أخذ عليهم انقيادهم الأعمى لزوجاتهم، واستكانتهم لهن، وطغيان هؤلاء الزوجات عليهم حتى أصبحوا هزأة!.. وكان هو ــ قبل أن يتزوج ــ أكثر الناس تندراً بهم، وتنكيتاً عليهم.

ويتنبه ذهنه فجأة إلى نظرة ذات معنى كان تبادلها اثنان من ضيوفه هذه الليلة، وإلى ضحكة أخفياها عندما غير رأيه في قضية تتعلق بالسياسة مسايرة لرأي سخيف أبدته زوجه. كما تذكر أيضاً كيف عدل مرة عن مشروع هام كان قد باشر العمل فيه في قرية نائية، لأن زوجه لم توافق على العمل فيه، ومازالت به حتى أقنعته بالعدول عنه، كل ذلك لأنها لا ترغب في سكنى القرى، ولم يسعه إلا النزول مستكيناً عند رأيها ــ شأنه معها دائماً ــ.

ويتضح له أنه أصبح دون وعي منه واحداً من هؤلاء الرجال المستكينين لزوجاتهم، الذين يتندر بهم الناس، ويجعلونهم هزأة في مجالسهم!!.

ولأول مرة منذ تزوجها شعر نحوها بشيء من المقت والكره، وراح يتساءل لماذا تتكبر عليه هذه الصغيرة الحمقاء؟؟.. ولم يضعف أمامها؟.

إنها ليست ذات جمال نادر، أو ذكاء فارط كما تظن نفسها، وهو في الواقع لا يهتم بها، ولا يتألم من أجلها فما أكثر أمثالها في النساء، ولكنه يخشى أن تُهان كرامته، أو تُجرح كبرياؤه!.

ماله يقف حيران مرتبكاً أمام هذه المرأة التافهة التي هي زوجه؟؟ هو الذي كان إلى حين قريب تياهاً على نساء يفقنها في كل شيء، وكن يتهافتن على وده رغم كهولته وشبابهن، ورغم ما عُرف عن قسوته عليهن. لا شك أنه أخطأ عندما أفرط في تدليل هذه الصغيرة، حتى أصبحت تستهتر به، ولا تأبه له أبداً. ويتذكر حادثاً طريفاً مر به وهو في عز شبابه، فقد صفع مرة خليلة له غالية عليه أمام الناس في حفل كبير لأنها ابتسمت لرجل كان يكرهه ويغار منه. ثم ندم على ما بدر منه من قسوة وعدم لياقة فقرر أن يذهب إليها إذا أصبح الصباح يستغفرها، ويسترضيها، فإذا هي تسبقه إلى ما عزم عليه، وتسعى إليه في الصباح الباكر باكية تطلب عفوه ورضاه، وكأنها هي المذنبة. ويتذكر كيف عاد إليه صلفه وتيهه فلم يرض عنها إلا بعد جهد طويل.

قال في نفسه:

بمثل هذا يجب أن تُعامل النساء.. ومالي حدت عن الطريق، أليست هذه واحدة من النساء؟.

ويلتفت نحوها ، ويهم أن يصيح بها يوقظها من نومها ليناقشها حساباً عسيراً . ولكنه عاد فتراجع ، وكظم غيظه وأرجأ ذلك إلى الصباح .
قال في نفسه :

لم كل هذه العجلة والأيام بيننا ؟ .

كانت العواصف ماتزال تصطرع بشدة . الرعد يزمجر . المطر ينهمر . البرق يلتمع ، ويتوقف سير تفكيره عندما يرى من النافذة العريضة التي تواجه سريره تماماً صفحة السماء الدكناء يرسم عليها البرق أشكالاً غريبة رائعة . فراح يتأملها ساهياً لاهياً كطفل صغير . فإذا ومضة برق هائلة يقتحم سناها النافذة تتبعها ومضات متتالية فيضيء الغرفة المظلمة نور وهاج وبنظرة خاطفة يلمح وجهها الذي مايزال متجهاً نحو سقف الغرفة وقد تقلصت قسماته بشكل يدل على أنها تبكي .. ويظل في مكانه سادراً يفكر ، ثم يتناهى إلى سمعه عند هدأة الرعد صوت أنفاسها مضطربة مبهورة تتخللها شهقات مكبوتة . ويتأكد له بكاؤها .

وإذا ثورته تهدأ شيئاً فشيئاً ، ويحل محلها حنان واشفاق . فما كان ليخفى عليه ــ وهو العليم بطبائع النساء ــ أنها تقاسي كثيراً ،

فقلما تبكي المرأة في الخفاء إلا إذا بلغ منها الألم كل مبلغ. ماذا يشقيها ويؤلمها يا ترى؟؟.. لا شك أنها تخفي عنه أمراً هاماً.

وبحركة لا شعورية يضيء الكهرباء. وإذا هي تخفي مسرعة وجهها بزندها، وتظل ساكنة لا تأتي بحركة، وصدرها يعلو ويهبط كأنها تعاني ضيقاً في تنفسها. ويقوم عن سريره ويجلس على طرف سريرها، ويسألها بلهجة تكلف فيها اللامبالاة:

ـــ مالك تبكين؟.

ـــ أشعر بصداع أليم.. قالت ذلك دون أن تتحرك، أو ترفع زندها عن عينيها.

ـــ هاها.. الصداع لا يُبكي بهذا الشكل.. ولم تتحملينه؟ الأمر بسيط، حبة اسبرين واحدة تريحك منه.

ـــ أشعر أيضاً بضيق يكاد يخنقني، ربما لا يفيدني الاسبرين..

ـــ اجلسي، اجلسي.. لي معك حديث.. تعالي نتفاهم بهدوء وصراحة. وإذا استطعنا التفاهم، لا بد أن يزول عنك الصداع، وينجلي الضيق.

ـــ لا داعي لكل ما تقول.. أرجوك أن تتركني الآن.. فلست قادرة على الحديث معك.

ـــ لن أتركك أبداً .. كفاني ما لقيت منك ! .. وكان يقول ذلك بصوت عال ولهجة قاسية أكسبته السيطرة على الموقف حالاً . ثم يسحبها من يدها بقوة فتستوي جالسة أمامه وجهاً لوجه على حافة السرير ، وقد بدا الرعب على وجهها فزاده جمالاً ، وراح يحدق إليها فلم يرها أبداً أجمل منها في تلك اللحظة . كانت شاحبة اللون ، قد اتسعت عيناها السوداوان المخضلتان بالدموع دهشة لما حدث ، ولما سيحدث ، وانتثر شعرها الأسود الغزير على كتفيها بلا انتظام . وأحسست أن غلالة النوم قد مالت عن عنقها ، وانحسرت عن كتفها البضة المستديرة فتسحبها بعصبية وتحكمها حول عنقها كأنها تحاول أن تستتر أمامه ما أمكنها . ويلاحظ هو ذلك فيبتسم بمرارة .. وشعر منذ تلك اللحظة كأن هوة كبيرة قد انشقت بينهما ففصلتهما عن بعضهما وتركت كل واحد منهما في ناحية .

وتمضي فترة صمت ثقيلة ، كان هو يتفرس في وجهها وهي تتحاشى النظر إليه ، ثم يقول لها بعد أن تغلب على اضطرابه فبدا هادئاً :

ـــ إنني أشعر منذ تزوجتك أنك لا تحبينني ! . وأنك لست سعيدة أبداً بالعيش معي .. لم رضيت الزواج بي إذن ؟

ـــ أنا .. لم .. وبلعت الكلمات ، وراحت دموعها تتساقط عل خديها

قطرات كبيرة بلا نشيج، وهي مطرقة الرأس بصمت محزن، وفمها مطبق.

ــ فهمت كل شيء. ولو أن فهمي جاء متأخراً جداً!!.. لقد أُجبرت على الزواج بي.. أليس كذلك؟.. إنه أبوك الغبي، ومن ورائه زوجة أبيك. لقد عرفت الماكرة كيف تغشني، وكيف تستغل ضعفك فتسيطر عليك يا مسكينة وتجبرك على الزواج بمن لا تحبين!!..

ولكن هذا كله على ما فيه من ظلم لا يبعث على البكاء في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، إلا إذا كان هناك شخص آخر ترغبين فيه وتتحرقين على لقائه.

ــ لا لا... احلف لَكَ أنه لا.

ويرد عليها بنزق:

ــ لا تحلفي أبداً... ولا تورطي نفسك في اثم... ولا تحاولي النكران، إنه لا يجديك نفعاً... لست أنا ممن تخفى عنهم مثل هذه الأمور... أصدقيني القول، وثقي أنني سأكون إلى جانبك حتى النهاية.

وتأنس بعض الشيء بلهجته التي تنم عن الصدق، ولكنها

تظل صامتة مطرقة ترتجف من شدة الانفعال دون أن تحاول تبرير نفسها بكلمة واحدة. كأنها تقره على ما يقول.

ويعود فيقول لها:

ـــ لم لم يزوجوك منه إذن؟.

ـــ .....

ـــ أفقير هو؟؟.

وتظل مطرقة ودموعها تتساقط بغزارة وفمها مطبق.

ويتأملها مشفقاً ثم يقول:

ـــ أو تبكين كثيراً هكذا من أجله؟.

وتتنهد من عمق، ثم تزفر زفرة لم تستطع كتمانها.

ويقول لها بلهجة حنون:

ـــ لعلك سمعت عنه خبراً سيئاً هذه الليلة؟

وتهز رأسها ايجاباً دون وعي منها... ودون أن تنظر إليه.

ويتذكر هو حديثاً دار بين الضيوف قبل انصرافهم بقليل عن طلاب جامعيين قُبض عليهم وهم يقومون بمظاهرة ضد الفرنسيين وأودعوا السجن، ويقال أنهم يعذبون فيه عذاباً منكراً.

ويتذكر كيف تلقت هي الخبر بشهقة عالية أثارت استغرابه، ولفتت نظر الجميع، ثم بدا عليها وجوم وشرود، ويسألها متلطفاً:

ـــ لعله أحد هؤلاء الطلاب الذين يعذبون الآن في السجن؟.

وكأنه قد فرغ صبرها ومقدرتها على ضبط أعصابها فتضع يديها على وجهها وتجهش بالبكاء بصوت عال.

فيتأكد أن غريمه واحد منهم. وتلوح على فمه ابتسامة مرّة لأنه استطاع أن يحزر، ولأن حدسه جاء في محله.

ورغم هذه الحقيقة القاسية التي انجلت واضحة أمامه يظل هادئاً غير مضطرب، كأن الأمر لا يعنيه في قليل أو كثير، حتى بدأ يعجب من نفسه أشد العجب، ويكاد ينكرها.. كيف استطاع أن يتلقى هذا الواقع الفظيع بهدوء وبرود لا يعهدهما أبداً في طبعه؟.. لا سيما في مثل هذه المواقف، أي تغير طرأ عليه فأحاله إنساناً آخر لا عهد له به؟؟..

ويتأملها وهي أمامه تبكي وتنشج، وتبدو له كطفلة صغيرة، حيرى مرتبكة، مغلوبة على أمرها، لا حول لها ولا طول.

ويحس أن شعوره نحوها بدأ يتحول بسرعة إلى حنان وعطف، ويود في صميمه لو يستطيع أن يهدهد حزنها فيأخذها في حضنه

يمسح دموعها ، ويربت كتفها . ولكنه لم يجرؤ أبداً أن يمسها كأن قوة خفية تصده عنها .

ويظل جالساً أمامها حيران مدة من الزمن لا يدري أطالت أم قصرت . كان يستمع إلى نشيجها المرّ فيشعر كأن قلبه يتقطع عليها حسرة ولوعة .. ثم يقوم متثاقلاً دون أن يفوه بكلمة واحدة ويخرج من الغرفة ويتركها وحدها على الوضع الذي هي فيه .

وتهدأ العاصفة شيئاً فشيئاً فيصمت الرعد ، وتنقطع المطر ، وتنقشع السحب عن سماء زرقاء فيها قمر يتهادى بين الغيوم ، ويتنفس الصبح عن نهار وضاح . وتستعيد هي هدوءها وتستوعب ما حدث لها كأنها كانت في غيبوبة ثم صحت لتوها ، فيكبر عليها الأمر ، ويتملكها خوف شديد وتسأل نفسها مرتاعة :

كيف استطاع هذا الماكر أن ينتزع منها هذا الاعتراف الخطير بسهولة ويسر ؟!.. لقد اغتنم فرصة يأسها وانهيار أعصابها فكان له ما أراد ...

إلامَ سينتهي أمرها يا ترى ؟..

وراحت تصغي إلى صوت خطواته وهو يتنقل بين غرف

البيت ، وإلى صوت حركة متوالية في غرفة الزينة المقابلة لغرفة النوم ، وإلى صرير أبواب الخزائن والأدراج وهي تُفتح وتُغلق .

ماذا يعمل يا ترى ؟..

ليت لديها ولو قليلاً من الشجاعة لمجابهته وسؤاله عما يفعل .

ثم يتناهى إليها صوت خطواته على الدرج ، ثم تسمع صرير باب البيت الخارجي وهو يُغلق بشدة ، وتتيقن أنه برح البيت ، وتخرج من غرفتها وتسرع إلى الشرفة وتطل منها فتلمحه وهو يركب سيارته وينطلق بها .

تساءلت :

إلى أين يا ترى ولم تشرق الشمس ؟؟..

لا شك أنه ذاهب إلى أبيها ليخبره بكل ما حدث بينهما ، فيا هول ما ينتظرها !!..

وتعود إلى غرفتها مضطربة ، حزينة يائسة ، وترى في طريق عودتها على إحدى المناضد رسالة تركها لها فتتناولها وتفتحها بسرعة وتبدأ تقرأ ، ثم تعيد ما تقرأ بدهشة واستغراب ، وتكاد لا تصدق ما تقرأه عيناها .

أحقاً يا ترى ما يقول ؟؟.. إنه الآن ماض إلى مشروعه الذي

كان يعمل فيه في القرية النائية . وسيظل ما حدث بينهما هذه الليلة سراً مكتوماً حتى عن أبيها وزوجه ، لأنه يعرف تماماً ما سيلحقها من ضيم إذا عرفا حقيقة أمرها . تلك الحقيقة التي يراها هو حقاً مشروعاً لها ، ومن الظلم أن تُحرم منه ، وسيبقيها في بيته وتحت حمايته ـــ إن أرادت ـــ ريثما تدبر أمورها كما يحلو لها ، لأنه لن تربطه بها بعد اليوم رابطة تجيز له التدخل في شؤونها الخاصة . وسيعيد إليها حريتها ساعة ترغب وتريد ، وسيكون لها خير نصير .

ويختم رسالته بجملة بدت لها أول الأمر كلغز إذ يقول :

أنا رجل كهل . تستطيع امرأة مثلك أن تسعدني ، ولكنها لا تستطيع أبداً أن تشقيني ، ولذا فأنا أحمد الله الذي سخر لي ومضة برق خاطفة أضاءت لي حقيقة أمرك ، وكانت معواناً لي على كشف سرك الذي تخفينه عني وتشقين به !.. واحمديه أنت أيضاً لأنه أومضها في ضميري فانتهيت إلى هذا القرار الذي ارتاحت إليه نفسي ، واطمأن قلبي ، ولن أحيد عنه أبدا مهما قال الناس فيه .

بينما كانت هي تقرأ ، وتعيد ما تقرأ في دهشة واستغراب . كان هو ماضياً في طريقه ، تنهب سيارته الأرض نهباً . وقد ربض خلف مقودها شامخ الرأس ، متعالياً ، راضي النفس ، يبدو لعينيه كل شيء جميلاً ، ويشعر معتزاً بأن الغلبة كانت له أيضاً على المرأة في هذه الليلة العاصفة بكل شيء ، كما لم تكن أبداً .

# كوني حكيمة

سألت السيدة ( س ) صديقتها قائلة :

ـ كيف كانت سهرتكم ليلة عيد رأس السنة الجديدة ؟

لم تحدثيني عنها أبداً... أنا التي حُرمت منها لأن عجوزاً من قريبات زوجي البعيدات لم تجد وقتاً تموت فيه أنسب من تلك الليلة . لا أدري إلى متى سنظل مقيدين بهذه التقاليد البالية وما فيها من مجاملة كاذبة ؟!..

ـ أؤكد لكِ أننا سنظل مقيدين بها مادمنا جبناء!... أي كارثة كانت ستقع لو أنك وزوجك تجاهلتما عاداتنا وأتيتما إلى تلك السهرة التي لا نحظى بها إلا مرة في كل سنة .

لقد افتقدناكما كثيراً، وكانت والله سهرة ممتعة حقاً . أقول ذلك رغم أني لم أرقص أبداً، ولم أتزحزح من مكاني، وكنت وزوجي أول المنصرفين منها .

وتحملق السيدة ( س ) بضيفتها مستغربة وتقول :

ـــ ومع ذلك تقولين أنها كانت ممتعة ؟؟... هذا لغز يا عزيزتي... ولكن لا يصعب على من كانت مثلي حله . قولي لي يا شيطانة إلى جانب من كنت جالسة ، وأنا سأحل اللغز فوراً . وترد عليها وهي تضحك :

ـــ أخشى إذا قلت لكِ ذلك أن يزداد اللغز تعقيداً . كنت إلى جانب رجل كهل ، ما عرفته إلا تلك الليلة ، ولو رأيته لبدا لكِ سمجاً ثقيلاً .

ـــ أعترف أنني عاجزة عن الحل ، فهاتي القصة بتمامها .

ـــ كنت أعد نفسي لسهرة فريدة ممتعة أستقبل بها العام الجديد ، وكل شيء كان يجري كما أشتهي تماماً ، كنت راضية كل الرضى عن ثوبي الجديد ، وعن تصفيف شعري ، وعن ثلة الأصدقاء التي اخترناها أنا وزوجي للسهر معنا ، وعن موقع مائدتنا الذي جاء مشرفاً على حلبة الرقص ، كما أرغب تماماً . ولكن صديقنا عزيز أفسد علي جمال ذلك كله حين جاء متأخراً وقد اصطحب معه رجلاً كهلاً قدمه إلينا قائلاً :

ـــ خالي سعيد بك .. جاء اليوم مصادفة من مزرعته فأحببت أن

أدعوه إلى السهرة معنا. هل تصدقون أنه كان ناسياً أن الليلة عيد رأس السنة الجديدة هذا الذي كان إلى أمد قريب من رواد النوادي، ومن المجلين في مثل هذه السهرات. ولكن المزرعة على ما يبدو لي قد شغلته عن كل شيء.

ويجيب الرجل بصوته الأجش:

ــ أرجو ألا أفسد على الشباب سهرتهم... ما ذنبي أنا؟ صديقكم أراد لكم ذلك. ويبتسم ابتسامة عريضة وهو يستمع إلى عبارات المجاملة تنصب عليه من كل جانب. وكان زوجي أكثر المجاملين حماسة حين تخلى للضيف عن مكانه الذي كان إلى جانبي تكريماً له. ولم يخف علي أبداً أنه اغتنم فرصة ليجلس جانب سلوى في أقصى المائدة. وأنت تعرفين سلوى!. ولا أظنه يجهل أن في ذلك ما يغيظني ويزعجني. فمن عيوبي التي لا أنجح في التغلب عليها أبداً هو عدم استطاعتي كبت عواطفي التي تبدو جلية على وجهي، وكثيراً ما تسبب لي مآزق حرجة.

وأتجاهل وجود الضيف إلى جانبي. وأظل صامتة أصوب إلى زوجي نظرات تعبّر عن غيظي. وكأنني أقول له:

أتتركني إلى جانب هذا العجوز السمج؟. ولا بد لي من مجاملته طول السهرة بينما تذهب أنت لتلهو مع سلوى كيفما تشاء.

وتعزف الموسيقى، ويجيء زوجي يدعوني إلى الرقص كأنه يريد أن يتلافى ما وقع. وأرفض معتذرة بالعذر التقليدي: إن قدمي تؤلمني من ضيق حذائي الجديد. ويتقبل العذر فوراً دون أي اعتراض مما زاد في غيظي، وينصرف من أمامي غير مبال بي، كأنه فرح عندما تخلص من واجب ثقيل كان يتحتم عليه أداؤه. ويعود فيدعو سلوى، وراحا يرقصان منسجمين تماماً، ورحت أتمزق غيظاً لا سيما حين يضمها إلى صدره بحنان وهي تصوب إلى عينيه نظرات غنج وافتتان... وتحين مني التفاتة إلى المائدة التي كنت أحتل أول كرسي عليها فأجدها خالية لقد قام الجميع يرقصون وبقيت وحدي مع الضيف الكهل. وقد لاحظت أنه كان يراقب حركاتي بفضول، فشعرت بشيء من الارتباك، ولم أجد مناصاً من التحدث إليه ولو ببضع كلمات فاللياقة تتطلب مني ذلك فهو ضيف مائدتنا على كل حال فقلت له:

ـ تحلو لي أحياناً الفرجة على الرقص أكثر من المشاركة فيه.

ويبتسم وهو يحتسي شرابه ابتسامة غامضة لا أفهم منها شيئاً. كنت أتوقع أن يقرني على رأيي هذا كما تقضي بذلك المجاملة ولكنه لم يفعل. ورحت أتفرس في وجهه الذي بدأت آلفه أكثر من ذي قبل، فأرى عينين واسعتين تنبعث منهما نظرات جريئة تدل على قوة

شخصه، وأنفاً أقنى يضفي عليه شيئاً من الكبرياء، وشعرات بيضاء منتثرة على فوديه تزيد سمرته دكنة، وأناقة في غير تكلف، وضع كأسه على المائدة بتؤدة وأشعل لفافة ثم اقترب مني لأسمع كلامه الخافت رغم صخب الموسيقى وقال:

ـــ أنا على عكسك يا سيدتي تماماً. لا أطيق الفرجة أبداً. وقد هجرت هذه السهرات رغم ولعي بها وانزويت في مزرعتي منذ تنبهت ذات ليلة فوجدتني لا أصلح إلا متفرجاً!.. فضحكت وقد أعجبني حديثه وقلت له:

ـــ لعلك كنت واهماً. قال:

ـــ لم أكن واهماً مع الأسف!.. كان هو الواقع!.. دعوت إلى الرقص ليلتئذ سيدة كنت معجباً بها فإذا هي تعتذر لي كما اعتذرت أنت لزوجك قبل قليل. وأنا أعرف تماماً أن الحذاء الضيق لا يعيق امرأة عن الرقص مع رجل ترغب فيه، فانصرفت عنها مقهوراً. ودعوت أخرى وكانت كريمة لبت الدعوة وياليتها لم تلبها!. كانت ترقص معي ولكن ذهنها كان منصرفاً إلى غيري، وكانت عيناها تتابعانه بلهفة، ولست ممن يخفى عليهم مثل ذلك!...

فما أن انتهت الرقصة حتى خرجت من النادي وأنا مصمم

على ألا أعود إليه أبداً . لقد استسلمت في الوقت المناسب . ألا ترين أن هذه ميزة ؟ . .

قلت ضاحكة :

ـــ لا شك أبداً أنها ميزة عظيمة إذا أتت في أوانها .

قال :

ـــ قلائل جداً الذين يعرفون أوانها ويرضخون للواقع ويقدرون الوقت المناسب للانسحاب . أما أنا فمنذ ذلك الحين غيرت نمط حياتي ، وسرت على نمط جديد يتفق مع تقدمي في العمر . لقد اعتدت أن أكون مجلياً دائماً أبداً . . .

كنت أستمع إليه وأنا شاردة الذهن ، أختلس بين حين وآخر نظرة إلى حلبة الرقص لأراقب زوجي . فقد خيل إلي أنه كان يحاول أن يبتعد عن مكاني ما أمكنه ليرقص مع سلوى كما يحلو له . فكنت أمط رقبتي لأراقبهما . ولاحظ الرجل الكهل ذلك فقال لي :

ـــ أتسمحين باسداء نصيحة إليك قد تفيدين منها .

قلت :

ـــ أشكرك مادمت تسدي النصائح هكذا لوجه الله .

قال :

ـــ بل أسديها إلى كل جميل يتجلى فيه ابداع الله .

فابتسمت له وقلت :

ـــ إني مصغية إليك ! .

قال وهو يشير إلي باصبعه بلهجة قاطعة :

ـــ إما أن ترقصي ، وإما أن تديري ظهرك إلى حلبة الرقص فلا تبالي ولا تهتمي بما يحدث فيها أبداً .

قلت بلهجة قاسية :

ـــ ومن قال لكَ أنني أبالي أو أهتم ؟؟

قال :

ـــ معذرة إذا أسأت إليك . ورفع كأسه وأشار إليه قائلاً :

ـــ قاتلها الله . تجعلني أحياناً أتجاوز حدودي ، وأتدخل فيما لا يعنيني .

وأشعر أن لهجتي كانت قاسية أكثر مما ينبغي فقلت له مبتسمة لاتلافى ما بدر مني :

ـــ أريد أن أعرف فقط ما الذي جعلك تعتقد أنني مهتمة بما يجري في حلبة الرقص؟؟ هل يبدو عليَّ شيء من هذا!؟

قال وقد لمعت في عينيه نظرة خبيثة:

ـــ لقد أفنيت عمري حول أمثال هذه الموائد، فما يخفى علي شيء مما يجري عليها.

وينفث دخان سيجارته ويتأمله شارداً كأنه يتأمل ماضيه المزدحم بأمثال هذه الصور.

وأدرك أنني حيال رجل ذكي قارح، كثير التجارب يستطيع أن يدرك بفراسته كل ما يدور في خاطري كأنه يقرؤه في كتاب. فما يجدي معه نكران أو تمويه، وآثرت أن أدير الحديث إلى مزاح فقلت:

ـــ كأنك والله منجم أو عراف تقرأ ما يوسوس في الصدور.

قال:

ـــ وما المنجم أو العراف يا سيدتي إلا رجل دقيق الملاحظة كثير التجارب وقد أكسبه ذلك كله فراسة صادقة ومعرفة بما يدور في عقول الناس وتأكدي أنه لا يختلف عن غيره إلا قليلاً. فالإنسان هو الإنسان بغرائزه وطباعه مهما أوغل في المدنية فما تختلف امرأة هنا ـــ في مثل موقفك هذا ـــ عن أخرى في مجاهل افريقيا أو متاهات

الاسكيمو، سوى أن هذه أقدر من تلك على كظم غيظها وتمويه غيرتها، تكز على أسنانها، أو تمزق منديلها بأصابعها تحت المائدة، بينما تلك تعول أو تضرب خديها أو تشد شعرها. وكل واحدة منهما لو أتيح لها أن تنشب أظفارها في عنق غريمتها لما ترددت أبداً.

قلت:

ـــ لقد خوفتني والله من نفسي.

قال:

ـــ الحقيقة مخيفة دائماً وبشعة، ولذا نحاول أن نغلفها بما يسترها أو نلونها بألوان نخدع بها أنفسنا.

قلت:

ـــ لم تنصحني مثلاً بأن أرقص مع من أنسجم معه حتى أثير غيرة زوجي فأنتقم لنفسي عوضاً عن أن أدير ظهري إلى حلبة الرقص وأترك له المجال يجول فيه كيفما يشاء؟

قال:

ـــ إياك أن تفعليها ... إنها طريقة قديمة عقيمة وقد ثبت فشلها، وإذا اتبعتها فسيظل كل واحد منكما سائراً في طريقه، ولا بد أن يأتي يوم

تبعد فيه الشقة بينكما وتجدان أنكما تعيشان في جو من الخداع، والغش، واللامبالاة وهذا شر ما يُبتلى به زوجان.

قلت:

يبدو لي كلامك جوهرياً. سأعمل بنصيحتك. وأدير ظهري إلى حلبة الرقص وأصبح مواجهة له فيبتسم لي بحنان أب ويقول:

ــ حسناً فعلت. حاولي دائماً ألا تكوني كأمنية تحققت ولم تعد شيئاً. إن الحب يا سيدتي لا يتعدى قضية العرض والطلب. أي كلما ازداد العرض قل الطلب.

قلت:

ــ هذا صحيح والله. وأظل صامتة أفكر. فقال مبتسماً:

ــ بماذا تفكرين؟ ألم تعجبك الخطة؟.

قلت:

ــ بل أعجبتني كثيراً. ولكنني أسائل نفسي كيف تورطت بالحديث معك ــ ولما يمض على تعارفنا إلا ساعات ــ فبحت لك بأمور أنا أحرص ما أكون على كتمانها حتى عن أقرب الناس إلي؟.

فقهقه ضاحكاً وقال:

ـــ أعجبتني صراحتك.. لا تغضبي على نفسك، ولا تفرطي في لومها. أنت لم تبوحي لي بشيء، إنما أنا اكتشفت ذلك كله. ألم أقل لكِ أنني أفنيت عمري حول هذه الموائد فما يفوتني شيء مما يدور حولها.

وتحين مني التفاتة لاشعورية إلى حلبة الرقص فإذا هو يقول لي متململاً ويشد على الكلمات :

ـــ لا تفعلي ذلك أبداً. اسمعي من مجرب مثلي. ستفسدين كل شيء.

قلت :

ـــ إن ما تطلبه مني هو فوق طاقتي.

ـــ أعطيك بعض الحق.. إن نمط هذه الحياة العصرية الجديد الذي نعيشه اليوم معقد إلى حد بعيد. وهو دخيل علينا كما تعلمين. منذ سنوات قليلة فقط بدأنا نمارس الرقص، ونحتفي بمثل هذه الأعياد. فلا تحسبي هذا سهلاً. إننا نحتاج إلى أمد طويل ريثما يتأصل فينا، وعندئذٍ نستطيع أن نعيشه بعفوية وسليقة، وحتى نصل إلى ذلك الحين نحتاج إلى كثير من الصبر والسيطرة على الأعصاب واللباقة في التصرف. وهذا كله يتطلب تمريناً ودراية فنحن لم نعهد عليه أمهاتنا

وجداتنا ، وأنت لا تزالين صغيرة ولا بد أن تحذقي ذلك كله يوماً ما ، ولكن بعد أن تمري بتجارب قاسية ، ولذا أحببت أن أختصر لكِ السبل .

ولكن اسمحي لي الآن بسؤال صغير : أنا لا أستطيع أن أفهم أن واحدة مثلك لها وجه يوحي بالربيع وأزهاره وصفائه ، كيف تهتم أو بالأحرى تغار من تلك التي تشبه حقلاً أسمر جافاً لملم الحصادون خيراته ؟ ؟ ..

فضحكت وقلت له :

ــ هذا أحلى مديح سمعته في حياتي . لا شك أنك تستمد تشابيهك الحلوة هذه من جمال مزرعتك التي هي رائعة حتماً .

قال وقد لمعت في عينيه نظرته الخبيثة :

ــ قولي الصدق .. أيهما أعجبك أكثر مديحي لك ؟ أم ذمي لغريمتك ؟ ..

قلت :

ــ أف ! .. ما أصعب الحديث مع إنسان ذكي مثلك . ما يستطيع محدثه أن يخفي عنه شيئاً يخطر بباله . إن هذا يبعث على الارتباك .

فضحك وقال :

واحدة بواحدة، إن في قولك هذا أجمل إطراء سمعته في حياتي.

قلت :

ــ وإلى متى سنتبادل المدائح هذه الليلة؟؟ ونقهقه ضاحكين.. شعرت حينئذٍ بيد زوجي تُلقى على كتفي، وسمعت صوته يقول لي :

ــ اضحكونا معكم.

قلت بلا مبالاة :

ــ يا ليت ذلك ممكن!.

وينظر إلى مستغرباً ويتابع طريقه إلى مكانه الأول. وأظل مكاني أثرثر مع جاري الكهل الذي بدا لي أنه جذاب، ويبدو علينا انسجام واضح. وأرى أن زوجي بدأ يراقبنا من بعيد. وإذا الموسيقى تعزف الرقصة المفضلة لدي، ويعود زوجي ويقول لي بلهجة عاتبة :

ــ حتى هذه لا ترغبين في رقصتها أيضاً؟ وأبتسم له ابتسامة هادئة كعادتي عندما أكون سعيدة راضية وأقول له :

ــ أفضل البقاء هنا. ارقصها مع غيري. فراح يتفرس في وجهي كأنه ينكر منه شيئاً ثم ينصرف ليدعو غيري. وأعود إلى الثرثرة مع جاري الكهل وأعمل بنصيحته فلا ألتفت إلى حلبة الرقص أبداً. وتنتهي

الرقصة، وتصمت الموسيقى، وإذا زوجي يعود اليّ والغيظ باد في عينيه، ويقول لي بلهجة لا تسمح بالجدل أبداً.

ــ قومي. لنعد إلى البيت، إنني تعب جداً. وقبل أن يسمع جوابي بدأ يودع الرفاق الذين راحوا يعترضون على انصرافنا باكراً ولكنهم لم يستطيعوا أن يثنوه عن عزمه أبداً. ويغتنم الرجل الكهل فرصة ويقول لي :

ــ ما أسرع ما نجحت خطتنا. ويهمس وهو يودعني :

ــ لا تشتطي كثيراً، كوني حكيمة.

## بـوران

قال كبير الوزراء وهو يتحدث إلى قهرمانة قصره العجوز :

ـــ اسمعي يا هذه . سأكل إليك من أهمني أمره ، وعهدي بك الدراية والفطنة .

أجابت القهرمانة :

ـــ أنا عند حسن ظنك بي يا مولاي .

قال :

ـــ يسوءني جداً أن تسترق ابنتي السمع إلى كل ما يدور في مجلسي هذا من أغان وأحاديث ، ولقد خيل إليَّ البارحة أني سمعتها وهي تضحك من وراء الستور عندما روى أحد الظرفاء نكتة فاحشة ، ما أحب لها سماعها ، ولكم نهيتها فلم تنته ولم ترعو . وقد لا يخلو مجلسي من حديث أمثال هؤلاء الظرفاء ، أو مما يقوله شعراء ماجنون ، أو جوار خليعات ، مما أربأ بها أن تسمعه .

قالت القهرمانة :

ــ ليطمئن مولاي بالاً ، فوالله ما حوت بغداد فتاة تضاهي سيدتي ابنتك في رجاحة العقل ، وسموّ الخلق ، وإن كانت تهوى سماع ما يدور في مجلسك هذا فما ذاك إلا لولعها بالأدب والشعر ، وشغفها بالألحان والغناء .

قال الوزير :

ــ مها يكن الأمر ، لقد قررت اسكانها في قصر قريب مني ، يطل من جهة على ذلك الزقاق الضيق الذي يؤدي إلى دار الخلافة ، ويشرف من جهة أخرى على دجلة ، وإن فيه لبستاناً صغيراً ستجد فيه سلوتها إن ضاقت بها حجرات القصر ولتأخذ معها ما شاءت من قصري هذا من التحف ، والألطاف والنفائس ، ولتصحب معها من شاءت من الجواري والقيان والعبيد . وقد أمرت القيم على صندوقي أن يصرف لها ما شاءت من المال . فكوني أنت حارسها الأمين وزيني لها هذا الأمر ، وهيئيه لها بحكمتك ، وقولي لها إني ما أردت بذلك إلا الخير والراحة لها . فأنت تعلمين أنها حبيبة إلي ، عزيزة علي . وسأعرج على بيتها كلما غدوت إلى دار الخلافة أو انصرفت منها .

قالت القهرمانة :

ــ ليطب مولاي نفساً . وليعتمد علي فيما وُكِّل إلي .

وحاولت العجوز كثيراً لتجعل الصبية راضية عن مسكنها الجديد، وجهدت في سبيل ذلك ما وسعها الجهد، فلم تفلح أبداً، فليس من شيء يعدل في نظر الصبية مجلس أبيها الذي كانت تنتظر موعده متلهفة لسماع الشعر يرويه ناظموه، وللألحان يغنيها واضعوها، وللنكات يتندر بها مؤلفوها أو ناقلوها. حتى لكأنها، وقد حُرمت من ذلك كله، قد أُخرجت من جنات النعيم.

قالت القهرمانة ذات صباح، وقد رأت أن السأم والملل قد بدآ ينالان من صبيتها:

ـــ ما رأيك في نزهة على ضفاف دجلة تروحين عن نفسك بعض الشيء برؤية الزهر والنهر.

قالت الصبية:

ـــ إني لمدركة ما يدور في نفسك يا خالة فأنت ما برحت تودين أن تهيىء لي ما أجد فيه العزاء عما فاتني في قصر أبي. ولكن ثقي أنك لن تبلغي ما تريدين أبداً.

فحوقلت العجوز واسترجعت. ثم فكرت وأمعنت في التفكير وعادت تقول:

ـــ اسمعي يا بنيتي، جعلني الله فداءك، لقد أرقت بالأمس أرقاً

شديداً حتى كاد يمضي الهزيع الأخير من الليل ولقد سمعت جلبة وضجة في هذا الزقاق الضيق، فنظرت من الشرفة فرأيت بعض الناس يمرون وعليهم سيماء الخير والنعمة فقلت في نفسي لا شك أنهم من ندمان الخليفة آثروا اختصار الطريق فمروا من هنا وخطر لي أمر لعله يروق لك.

قالت:

ـــ ما عندك؟.

قالت العجوز:

ـــ ما علينا لو أتينا بزنبيل كبير ففرشناه بالديباج والدمقس، ثم ربطناه بأربعة حبال ثخينة، فإذا كان الهزيع الأخير أدليناه من الشرفة، وأنا ضامنة لك أنه لو رآه أحد هؤلاء الظرفاء، أو الندماء، لقعد فيه فرفعناه إلينا، وفيهم ممن لا تحلمين برؤيته في مجلس أبيك، فإذا أعجبنا به سامرناه حتى الصباح، ثم أخذنا عليه العهود والمواثيق ليكتم أمرنا، وإن لم نعجب به ضحكنا منه وأخلينا سبيله.

فانفرجت أسارير الصبية، وقالت للعجوز:

ـــ يالها من حيلة تفتق عنها ذكاؤك الفارط.

ولكن أما من خطر علينا؟؟

قالت العجوز :

ـــ أنا أكفيك كل خطر .

وما كان آخر الليل حتى كان الزنبيل المفروش بالديباج قد تدلى من الشرفة وقد شُدت إليه أربعة حبال ، وقد وقفت أربع جوار يرقبنه من علٍ . وكان الخليفة قد استدعى في تلك الليلة أحد ندمائه المغنين ، ثم عرض للخليفة ما جعله ينصرف عنه لبعض شأنه فجلس ينتظر حتى انقضى النصف الأول من الليل ، فآثر الانصراف إلى داره ، وسلك الزقاق فإذا هو يرى زنبيلاً معلقاً بأربعة حبال شُدت إلى الشرفة ، فقال في نفسه :

إن لهذا لسبباً ، وإن له سراً .

وأقام مدة يتروى ويفكر ثم قال : والله لأتجاسر ، ولأجلس فيه كائناً ما كان ...

ولما جلس في الزنبيل أحس به يرتفع ، حتى انتهى إلى الشرفة وإذا بأربع جوار يقلن له : انزل على الرحب والسعة . فنزل فإذا دار نظيفة حسنة التنظيم والترتيب . ثم أُدخل مجلساً فيه من ضروب التحف ، وصنوف النفائس ما لم ير مثله إلا في دار الخلافة فتملكته الحيرة والدهشة ، وإذا هو يشعر بجلبة وضجة .

ويرى ستوراً تُرفع في ناحية من نواحي المجلس، ووصائف يتسابقن في أيدي بعضهن الشمع، وبعضهن المجامر يبخرن منها العود والند، تتوسطهن صبية كأنها تمثال من عاج تتهادى بينهن كالقمر بين النجوم بقد يزري بالغصون. فلم يتمالك عند رؤيتها إلا أن ينهض فقالت:

ـــ مرحباً بك من زائر أتى وليست تلك عادته.

ورفعت مجلسه عن الموضع الذي كان فيه، وأخذت ترحب به وتجامله. ثم سألته عن بلده، وصناعته، ومن أي الناس هو فأحب أن يضللها فقال: إنه من بغداد، وهو تاجر ومن أمناء الناس وأوساطهم. ثم سألته عن روايته للشعر ومعرفته بأخبار العرب، فقال لها:

ـــ جُعلت فداك إن للداخل دهشة. وبي انقباض. ولكن تبتدئين أنت، فالشعر يأتي بالمذاكرة.

قالت:

ـــ لعمري لقد صدقت. وراحت تروي له قصائد من عيون الشعر وتحدثه بأحلى النوادر وأعجبها فدله ذلك على أنها أديبة ذواقة. إلى أن قالت له:

ـــ أرجو أن يكون قد ذهب بعض ما كان بك من الحصر والانقباض والحشمة. فهات ما عندك.

فراح بدوره ينشدها أروع ما حفظ من الشعر، وأحسن ما عنده من نوادر القصص وهي مصغية إليه، مستحسنة لكل ما يأتي به إلى أن قالت:

ـــ ما توهمت أبداً أن في عوام التجار، وأبناء السوقة واحداً مثلك فإن ما سمعته منك لمما يتحدث به عند خليفة أو أمير.

فقال امعاناً في تضليلها:

ـــ جُعلت فداك إن لي صديقاً ينادم أحد الأمراء. وهو حسن المعرفة، كثير الحفظ فإذا تخلف عن صاحبه ذهبت إليه فلربما أخبرني من هذه الأحاديث شيئاً فحفظته. قالت:

ـــ يجب أن يكون هذا فلعمري لقد حفظت فأحسنت الحفظ. ثم قالت:

ـــ يا جارية هات ما عندك.

فقُدم إليهما أفخر الطعام والشراب في أحسن آنية. فأصابا منه ما شاءا. ولما انتهيا منه قالت:

ـــ إني أراك كاملاً، وإنك في الرجال لفاضل، وإنك لوضيء الوجه، مليح الشكل، بارع الأدب وما ينقصك إلا شيء واحد.

ـــ فقال:

ـــ وما هو يا سيدتي دفع الله الأسواء عنك. قالت.

ـــ لو كنت تحرك بعض الأوتار، وترنم ببعض الأشعار.

فخاف إن غنى أن يفتضح أمره، فقال:

ـــ والله قديماً اشتهيته.. وطالما كلفت به وحرصت عليه فلم أُرزقه. وكلما تقدمت في طلبه كنت فيه أبعد حتى أعرضت عنه. وإن في قلبي من ذلك لحرقة، وإني لمستهتر به مائل إليه.. وما أكره أن أسمع في مجلسي هذا من جيده شيئاً لتكمل ليلتي، ويطيب عيشي...

قالت:

ـــ كأنك قد عرضت بنا.

قال:

ـــ لا والله ما هو تعريض وما هو إلا تصريح.

فقالت:

ـــ يا جارية ... العود . فما أن جسته حتى ظن أن الدار قد سارت بمن فيها . ثم أخذت تغني بعض ألحانه وتقول له :

ـــ كم أبدع فلان بهذا اللحن . . . وتسمي اسمه .

فيقول لها :

ـــ أوهكذا أوتي فلان من الحذق ؟ .. فتقول :

ـــ نعم وأكثر من ذلك .

ومازالا على حالهما تلك حتى لاح الفجر . فجاءت العجوز وقالت :

ـــ أي بنية إن الوقت قد حضر . فإذا شئت فانهضي ، فلما سمع مقالها نهض .

فقالت :

ـــ عزمت ؟

قال :

ـــ أي والله .

قالت :

ـــ تصحبك السلامة . عليك أن تستر ما كنا فيه ، فإن المجالس بالأمانة .

فأجاب :

ـــ جُعلت فداك . أوَ أحتاج إلى وصية؟؟ .. ثم ودعها وودعته وفُتح له باب في ناحية من الدار إلى طريق مختصرة وبادر إلى بيته . وظل بعدها ثلاث ليال يوافيها إلى مجلسها هذا ، ويخلف موعده مع الخليفة معرضاً نفسه لغضبه وقصاصه . وفي الليلة الثالثة قالت له عندما رأته :

ـــ أضيفنا ؟؟ ..

قال :

ـــ نعم ..

قالت مازحة :

ـــ أوجعلتها دار مقام ؟ .

قال :

ـــ جُعلت فداك حق الضيافة ثلاثة أيام فإذا عدت بعدها فأنت في حل من دمي .

قالت :

ـــ والله لقد أتيت بحجة .

ثم جلسا وأخذا فيما كانا فيه من الانشاد والحديث والغناء إلى أن حان الوقت، وجاءت العجوز. فقال لها وهو منصرف:

ـــ أتأذنين لي بذكر شيء خطر ببالي؟

قالت:

ـــ قل ما بدا لك.

قال:

ـــ إني أراك ممن يعجب بالغناء والأناشيد أشد العجب. ولي ابن عم هو أحسن مني وجهاً، وأظرف قداً، وأكثر أدباً وأغزر معرفة. وأنا تلميذ من تلاميذه وحسنة من حسناته، فإذا سمحت أتيتك به غداً.

قالت:

ـــ طفيلي ومقترح... أما كفاك أن سمحنا لك بثلاث ليال حتى طمعت أن تعود ومعك آخر.

فقال لها:

ـــ جُعلت فداك ذكرته لتكوني أنت المحكمة فإذا أذنت وأردت، وإلا فلا أذكره.

فقالت:

ـــ **إذا كان** ابن عمك على ما وصفت فأتنا به غداً.

**فقال:**

ـــ سمعاً وطاعة.

ثم ودعها وانصرف إلى منزله. وما كاد يستقر به المقام حتى فاجأته رسل الخليفة ومعهم الجند فسحبوه بحالته تلك إلى دار الخلافة. فإذا الخليفة جالس على كرسي وسط الدار مغتاظاً حرداً. فلما رآه قال له:

ـــ أخروجاً عن الطاعة، واخلافاً للموعد؟؟..

فقال: لا والله يا أمير المؤمنين. إنه كانت لي قصة أحتاج فيها إلى الخلوة.

فأومأ الخليفة إلى من كان واقفاً، فتنحوا، فقال له:

ـــ كان من خبري كذا كذا.. والله لا يمكنني يا أمير المؤمنين أن أصف لك من أي أحوالها أعجب، أمن جمالها أم من ذكائها؟ أم من حسن أدبها؟ أم من جودة ضبطها للغريب؟ أم اقتدارها على النحو، ومعرفتها بأوزان الشعر؟ أم من ضبطها للألحان وحسن ضربها على الأوتار؟ ولما وصل إلى هنا قاطعه الخليفة قائلاً:

ـــ ويحك يا هذا.. كيف لي بمشاهدة ما شاهدت؟؟..

فقال :

ـــ والله قد فكرت في قصتها ، وعلمت أنك ستطالبني بذلك فاحتلت للأمر وذكرت لها أن لي ابن عم ، وأسهبت في تعداد فضائله ومقدرته على الغناء حتى أذنت بمجالسته ، وسنصير إليها الليلة إذا شئت .

فقال الخليفة :

ـــ وكيف لا أشاء . ومضى النهار . فلما أن مضى من الليل هدأة جعل الخليفة يقول :

ـــ أما حان الميعاد ؟ .. وكان القلق بادياً عليه إلى أن جاء الوقت وسارا إليها .

وقال المغني للخليفة وهما في طريقهما إليها :

ـــ يجب أن تظهر برّي بحضرتها واكرامي ، وتطرح نخوة الخلافة ، وتجبر الملك . بل كن وكأنك تبع لي .

والخليفة يقول :

ـــ نعم .. أوأحتاج أن توصيني ؟ .

ثم قال :

ـــ ويحك، فإذا قالت لي غن فما أنا صانع؟.

فضحك المغني وقال:

ـــ عندما نصل إلى غنائك سأكفيكه أنا.

ولما وصلا إلى الزقاق الضيق رأيا زنبيلين معلقين. فقعد كل واحد في زنبيل. ثم صارا إلى الشرفة، وانتهيا إلى المجلس. فأخذ الخليفة يتأمل الفرش، والدار، والزي، ويتعجب كثيراً، ولما أقبلت الصبية بين جواريها بهت من حسنها، فقالت:

ـــ حيا الله ضيفنا، وابن عمه. ولكن ما أنصفت ابن عمك، حيث أجلسته دونك فهو جديد، وأنت صرت من أهل البيت.

فنهض الخليفة حتى صار في صدر المجلس.

ثم أقبلت عليه تؤانسه، وتناشده الشعر، وتمازحه وهو يأخذ معها في كل فن، ويفحمها. ثم قالت للمغني:

ـــ إن ابن عمك فوق ما وصفت وهل هو من عوام التجار أيضاً؟

قال:

ـــ نعم نحن لا نعرف إلا التجارة.

قالت:

ـــ وإنكما لغريبان فيها .

ولما أُحضر الشراب . قالت للمغني :

ـــ موعدك .

قال :

ـــ إنه لفاعل ، ولكن حتى نسمع شيئاً .

فأخذت العود وغنت بعض ألحانه . وأخذ الخليفة في الشراب ولما نال منه كفايته ، التفت إلى المغني ونظر إليه كما ينظر الأسد إلى فريسته ثم قال له :

ـــ غن لحنك الفلاني .

فقال :

ـــ لبيك يا أمير المؤمنين .

فعرفت أنه الخليفة فما ارتبكت ، ولا اضطربت بل انكفأت بأدب وجلست خلف كلَّة كانت مضروبة هناك .

ـــ ثم قال الخليفة للمغني :

ـــ سل من رب الدار ؟ فسأل العجوز فعرف أنها للوزير الكبير . وأن

الصبية ابنته. ولما لاح الفجر عادا إلى دار الخلافة وقال الخليفة للمغني:

ـــ اكتم هذا الأمر ولا تتفوه به أبداً.

ولما كان الصباح وحضر الوزير إلى دار الخلافة. بادره الخليفة قائلاً:

ـــ ألك بنت؟

قال:

ـــ نعم يا مولاي.

فقال:

ـــ إني أخطبها إليك.

قال الوزير وهو يكاد يطير فرحاً:

ـــ هي جاريتك يا مولاي.

قال الخليفة:

ـــ وقد أمهرتها ثلاثين ألف دينار.. فإذا صار المال إليك فاحملها إلينا.

لقد كان هذا الخليفة العتيد هو المأمون.

وكانت الصبية المغامرة هي بوران بنت الوزير الخطير الحسن بن سهل. وهي التي أصبحت فيما بعد زوج المأمون، ومن أحب نسائه إليه.

أما صاحبنا المغني فاسحاق بن ابراهيم الموصلي، الذي طبقت شهرته الآفاق في تلك الأحقاب، والذي نُقل عنه أنه قال:

رأيت كثيراً من الناس، من أشراف، وأمراء، وأدباء. فلم أر رجلاً يعدل المأمون ولا امرأة تفي ببوران.

# المحتـــوى


الإهداء ..... ٧
الرقية المجرَّبة ..... ٩
الحقد الكبير ..... ٢٢
وداعاً يا دمشق ..... ٣٣
انهزم أمام طفل ..... ٤٩
سلاطين مخفية ..... ٦٤
نسمة الصبا ..... ٧٦
الله كريم ..... ٨٨
خيط العنكبوت ..... ١٠٦
ماتت قريرة العين ..... ١١٦
قصَّة عمار ..... ١٢٥
ســراب ..... ١٣٨
شخصيات غير رسمية ..... ١٤٩
الصقيع في الربيع ..... ١٦٤
العودة أو الموت ..... ١٧٦
ومضة برق ..... ١٨٦
كوني حكيمة ..... ٢٠٠
بوران ..... ٢١٤

■ عندما نقرأ كتاباً، أو نمعن النظر في لوحة تطل علينا شخصية المؤلف أو الفنان ونحن نتجول بين السطور والألوان...

هذا ما حدث معي بالفعل عندما التقيت بالأديبة السيدة ألفة الأدلبي مع لفيف من أصدقاء دمشق، وراحت تحدثنا عن إحدى رواياتها التي لم تنشر بعد بإسهاب وفيض خاطر منقطعي النظير، فلمست عند هذه الأديبة حباً للأدب خالصاً، قوياً إلى درجة التعبد، فكانت تربط الماضي بالحاضر والمستقبل أيضاً. وبذلك وحده يستطيع قارئ كتبها أن يقف على ما كان، ويعيش ما يكون، ويتنبأ بما سيكون ■

**عبد الله البيتموني**